الباب الخامس ١١٥

فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال وفيه مسائل (١١٧٣)

١ — فصل فى حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية

اعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونه فى حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشُدّه إلى كبره : «والله الغنى وأنتم الفقراء ١١٧٣ب ». والله سبحانه

(١١٧٣) عرض ابن خلدون فى هـذا الباب لما يسمى الآن علم الاجتماع الاقتصادى Sociologie économique ، وهو الذى يدرس ظواهر الاقتصاد المتعلقة بإنتاج الثروة وتداولها وتوزيعها واستهلاكها للكشف عن القوانين التى تخضع لها هذه الظواهر وبيان العلاقات التى تربطها بعضها ببعض وتربطها بالظواهر الأخرى (انظر كتابنا فى « الاقتصاد السياسى »). وقد عرض ابن خلدون كذلك لهذه الظواهر نفسها فى سبعة فصول من الباب الثالث وفى ستة فصول من الباب الرابع (انظر تمهيدنا المقدمة ، الجزء الأول ص ١١٣ والتعليقين الأول والثانى فى ذيل هذه الصفحة) .

هذا ، وقد حذفت بعض فصول من هذا الباب فى بعض النسخ ، ورتبت فصوله فى نسخ أخرى على وضع آخر غير الوضع الموجود فى النسخ المتداولة وهو الوضع الذى سرنا عليه فى طبعتنا هذه . فمن ذلك مثلا أن النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ ترتب الفصول الأربعة التالية للفصل التاسع على هذا الوضع : نقل التاجر للسلع ؛ الاحتكار ؛ رخص الأسعار ؛ أىّ أصناف الناس تحترف التجارة . على حين أنها مرتبة فى النسخ المتداولة على وضع آخر كما يظهر من تتابع الفصول فى طبعتنا هذه .

(١١٧٣ب) جملة من آية ٣٨ من سورة محمد (أو القتال) وهى سورة ٤٧ . ونص الآية : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخلُ ، ومن يبخلْ فإنما يبخلُ على نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولّوْا يستبدلْ قوْماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » . وقد ورد هذا المعنى نفسه فى آية ١٥ من سورة فاطر (وهى سورة ٣٥) ، ونص الآية : « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد » .

خلق جميع ما فى العالم للانسان وامتن به عليه فى غير ما آية من كتابه فقال : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه »[١١٧٤] و « سخر لكم البحر[١١٧٥] » «وسخر لكم الفلك[١١٧٦]» وسخر لكم الأنعام»[١١٧٧]، وكثير من شواهده . ويد الإنسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف[٤٢٤] ؛ وأيدى البشر منتشرة فهى مشتركة فى ذلك ؛ وما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض . فالإنسان متى اقتدر على نفسه ، وتجاوز طور الضعف ، سعى فى اقتناء المكاسب ، لينفق ما آتاه الله منها فى تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعواض عنها؛ قال الله تعالى : «فابتغوا عند الله الرزق[١١٧٨]».

(١١٧٤) أول آية ١٣ من سورة الجاثية ، وهى سورة ٤٥ .

(١١٧٥) نص الآية : « الله الذى سخّر لكم البحر لتجرىَ الفلكُ فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (آية ١٢ من سورة الجاثية ، وهى سورة ٤٥) .

(١١٧٦) جملة من آية ٣٢ من سورة إبراهيم وهى سورة ١٤ ، ونصها : « وسخّر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار » .

(١١٧٧) من الآيات التى وردت فى تسخير الأنعام للإنسان قوله تعالى : « والأنعامَ خلقها لكم فيها دفءٌ ومنافعُ ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تَسْرحون . وتحملُ أثقالكم إلى بَلَدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بِشِقِّ الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم . والخيلَ والبغال والحمير لتركبوها وزينةً ، ويخلق ما لا تعلمون » (آيات ٥ — ٨ من سورة النحل، وهى سورة ١٦) ؛ وقوله تعالى: « أو لم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون . وذلّلناها لهم فمنها رَكُوبُهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافعُ ومشاربُ أفلا يشكرون » (آيات ٧١ — ٧٣ من سورة يس ، وهى سورة ٣٦) ؛ وقوله تعالى: « الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون » (آية ٧٩ من سورة غافر ، وهى سورة ٤١). — وأما العبارة التى ذكرها ابن خلدون وهى « وسخر لكم الأنعام» فلا نظن أنها وردت فى القرآن بهذا النص .

(١١٧٨) جملة من آية ١٧ من سورة العنكبوت وهى سورة ٢٩ ، ونصها : إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ؛ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون »

وقد يحصل له ذلك بغير سعى كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله ؛ إلا أنها إنما تكون معينة ولا بد من سعيه معها كما يأتى .

فتكون له تلك المكاسب معاشاً إن كانت بمقدار الضرورة والحاجة ورياشاً ومُتَمَوَّلاً إن زادت على ذلك . ثم إن ذلك الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد وحصلت له ثمرته من إنفاقه فى مصالحه وحاجاته سمى ذلك رزقا . قال صلى الله عليه وسلم: «إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت» . وإن لم ينتفع به فى شىء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة إلى المالك رزقا ؛ والمتملك منه حينئذ بسعى العبد وقدرته يسمى كسباً ؛ وهذا مثل التراث[١١٧٩] فإنه يسمى بالنسبة إلى الهالك [١١٨٠] كسباً ولا يسمى رزقاً ، إذ لم يحصل به منتفع ، وبالنسبة إلى الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقاً هذا حقيقة مسمى الرزق عند أهل السنة .

وقد اشترط المعتزلة فى تسميته رزقاً أن يكون بحيث يصح تملكه ، وما لا يتملك عندهم لا يسمى رزقاً . وأخرجوا الغصوبات[١١٨١] والحرام كله عن أن يسمى شىء منها رزقاً . والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر [١١٨٢] ويختص برحمته وهدايته من يشاء . ولهم فى ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها .

ثم اعلم أن الكسب إنما يكون بالسعى فى الاقتناء والقصد إلى التحصيل . فلا بد فى الرزق من سعى وعمل ولو فى تناوله وابتغائه من وجوهه . قال تعالى : « فابتغوا عند الله الرزق[١١٧٨] » . والسعى إليه إنما يكون بإقدار الله تعالى و إلهامه؛

(١١٧٩) أى الميراث .

(١١٨٠) أى إلى الميت ، لأنه لم يستهلكه ولم ينتفع به فى شىء من حاجاته .

(١١٨١) أى ما يغتصب من الغير .

(١١٨٢) ضمّن هذه العبارة ردًّا على المعتزلة لاستخدامه فيها فعل يرزق .

فالكل من عند الله ؛ فلا بد من الأعمال الإنسانية فى كل مكسوب ومتمول ، لأنه إن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر ، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الإنسانى كما تراه ، وإلا لم يحصل ولم يقع به انتفاع .

ثم إن الله تعالى خلق الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول ، وهما الذخيرة والقِنية[١١٨٣] لأهل العالم فى الغالب ، وإن اقتنى سواهما فى بعض الأحيان فإنما هو لقصد تحصيلهما بما يقع فى غيرهما من حِوالة[٩٢١] الأسواق التى هما عنها بمعزل[١١٨٤] ، فهما أصل المكاسب والقِنية والذخيرة .

وإذا تقرر هذا كله فاعلم أن ما يفيده الإنسان ويقتنيه من المتمولات إن كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه قيمة عمله وهو القصد بالقِنية ، إذ ليس هناك إلا العمل وليس بمقصود بنفسه للقِنية . وقد يكون مع الصنائع فى بعضها غيرها مثل النجارة والحياكة معها الخشب والغزل ، إلا أن العمل فيهما أكثر فقيمته أكثر . وإن كان من غير الصنائع فلا بد فى قيمة ذلك المفاد والقِنية من دخول قيمة العمل الذى حصلت به ، إذ لولا العمل لم تحصل قِنيتها . وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة فى الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت . وقد تخفى ملاحظة العمل كما فى أسعار الأقوات بين الناس ، فإن اعتبار الأعمال والنفقات فيها ملاحظ فى أسعار الحبوب كما قدمناه ؛ لكنه خفى فى الأقطار

(١١٨٣) قَنَوْت الشىء أقنوه قنوا من باب قتل جمعته ؛ وقَنَوْت الغنم أقنوها وقنيتها أقنيها والاسم القُنية بضم القاف وكسرها والقِنْيَة بكسر القاف (من القاموس والمصباح) .

(١١٨٤) يقصد أن تغير القيمة يحدث فى غير الذهب والفضة ؛ أما هما فقيمتهما الذاتية ثابتة . وهذا غير صحيح فإن قيمتهما الذاتية تتغير تبعاً لعوامل كثيرة منها : تغير كميتهما الموجودة فى العالم أو فى بلد ما ؛ ومنها تغير مبلغ تداولها ؛ ومنها التغير فى نشاط الحركة الاقتصادية نفسها . وقد درسنا هذه الأمور بتفصيل فى كتابنا « الاقتصاد السياسى » (الطبعة الخامسة صفحات ٢٠٠ — ٢١٩) . وقد نظر ابن خلدون إلى النقود المضروبة وثبات قيمتها الاسمية فخيل إليه أن القيمة الذاتية للمعدنين ثابتة كذلك .

التى علاج الفلح فيها ومؤونته يسيرة ، فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح . فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هى قيم الأعمال الإنسانية(١١٨٥) ، وتبين مسمى الرزق وأنه المنتفع به . فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح مسماها .

واعلم أنه إذا فقدت الأعمال أو قلت بانتقاص العمران تأذن الله برفع الكسب . ألا ترى إلى الأمصار القليلة الساكن كيف يقل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقلة الأعمال الإنسانية . وكذلك الأمصار التى يكون عمرانها أكثر

(١١٨٥) يجنح ابن خلدون فى هذه الفقرات إلى رأى القائلين بأن قيم الأشياء تختلف حسب اختلافها فى مبلغ ما بذل فيها من عمل وما يتطلبه إنتاج مثلها من مجهود . وقد اشتهرت هذه النظرية عند المحدثين من علماء الاقتصاد السياسى باسم « نظرية العمل » . وقابلها نظرية أخرى تقرر أن قيم الأشياء تختلف تبعاً لاختلافها فى مبلغ نفعها للانسان . وقد اشتهرت هذه النظرية عند المحدثين من علماء الاقتصاد السياسى باسم « نظرية المنفعة » .

وكلتا النظريتين ليست صحيحة على إطلاقها . وقد ناقشناها بتفصيل ، وبينّا مواطن خطئهما ، وانتهينا إلى ما ينبغى الأخذ به فى هذا الصدد ، فى كتابنا « الاقتصاد السياسى » (الطبعة الخامسة ، صفحات ١٤٨ — ١٦٠) .

فيحسننا هنا أن نشير إلى بعض ما يدل على عدم صحة النظرية التى يجنح إليها ابن خلدون . فمن ذلك أنه إذا لم تتعلق بالشىء أية رغبة ولم يحقق أية منفعة للانسان لا تكون له قيمة ما مهما بذل فى سبيله من مجهود . ومن ذلك أنه يكون للشىء قيمة متى تعلقت به رغبة ما ولو لم يبذل فى سبيله أى مجهود كالمياه المعدنية التى تتفجر وحدها من الأرض . ومن ذلك أنه قد يتحد الشيئان فى قيمتهما لاتحاد الرغبة فيهما مع اختلافهما فى المجهود الذى تطلبه إنتاج كل منهما كأردب قمح من أرض تروى بالأمطار أو بنظام الرى الصيفى السهل وأردب قمح من أرض تروى بالساقية أو بالآبار الإرتوازية . ومن ذلك أنه قد يختلف الشيئان فى قيمتهما لاختلاف الرغبة فيهما مع اتحادهما فى المجهود الذى تطلبه إنتاج كل منهما ؛ فالسمك الذى يخرج فى شبكة الصائد لا يباع جميعه بسعر واحد ، بل تختلف قيمته باختلاف نوعه ، على الرغم من أن المجهود قد وزع على كمياته بنسب متساوية . ومنها أن قيمة الشىء لا تستقر على حال واحدة بل لا تنفك تتغير تبعاً لتغير الرغبة فيه واختلاف كمية المطلوب منه وكمية المعروض على الرغم من أن المجهود الذى بذل فى إنتاجه أمر ثابت قد فرغ منه وتعلق بالماضى .

يكون أهليا أوسع أحوالا وأشد رفاهية كما قدمناه قبل [١١٨٦] . ومن هذا الباب تقول العامة فى البلاد إذا تناقص عمرانها إنها قد ذهب رزقها . حتى إن الأنهار والعيون ينقطع جريها فى القفر ؛ لما أن فور [١١٨٧] العيون إنما يكون بالإنباط [١١٨٨] والامتراء [١١٨٩] الذى هو بالعمل الإنسانى ، كالحال فى ضروع الأنعام . فما لم يكن إنباط ولا امتراء نضبت وغارت [١١٩٠] بالجملة ، كما يجف الضَّرع إذا تُرك امتراؤه. وانظره فى البلاد التى تُعهد فيها العيون لأيام عُمرانها ثم يأتى عليها الخراب كيف تغور [١١٩٠] مياهها جملة كأنها لم تكن . « والله يُقدِّر الليلَ والنهار » [٤٢٠] .

٢ — فصل فى وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه

اعلم أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعى فى تحصيله ، وهو مَفْعَل [١١٩١] من العيش ؛ كأنه لما كان العيش الذى هو الحياة لا يحصل إلا بهذه جُعلت موضعاً له على طريق المبالغة . ثم إن تحصيل الرزق وكسبه : إما أن يكون بأخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرماً وجباية ؛ وإما أن يكون من الحيوان الوحشى باقتناصه وأخذه برميه من البر أو البحر

(١١٨٦) تكلم على ذلك فى الفصل الحادى عشر من الباب الرابع (فصل فى أن تفاضل الأمصار والمدن فى كثرة الرَّفْه لأهلها ونَفَاق الأسواق إنما هو فى تفاضل عمرانها فى الكثرة والقلة) . انظر صفحات ٨٥٦ — ٨٦٣ .

(١١٨٧) فارت العَيْن والقِدْر فَوَرا وفَوَرانا جاشت (من القاموس) .

(١١٨٨) « نبط الماءُ ينبِط وينبُط نَبْطا ونبوطا نبع، ونبط البئرَ وأنبطها استخرج ماءها » (من القاموس والمصباح) .

(١١٨٩) مرى الشىء وامتراه استخرجه .

(١١٩٠) غار الماء غَوْرا ذهب فى الأرض فهو غائر وغَوْر . ومنه قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غَوْراً فمن يأتيكم بماء مَعِين » (آية ٣٠ من سورة تبارك وهى سورة ٦٧) . وغَوَّره تغويرا جعله يغور فى الأرض .

(١١٩١) يقصد اسم مكان على وزن مفعل كما يدل عليه ما يلى .

obeikandi.com

و يسمى اصطياداً ؛ و إما أن يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرفة بين الناس فى منافعهم كاللبن من الأنعام والحرير من دوده والعسل من نحله ، أو يكون من النبات فى الزرع والشجر بالقيام عليه و إعداده لاستخراج ثمرته ، و يسمى هذا كله فلحاً ؛ وإما أن يكون الكسب من الأعمال الإنسانية : إما فى مواد معينة وتسمى الصنائع من كتابةٍ ونجارة وخياطةٍ وحياكةٍ وفروسيةٍ وأمثال ذلك ، أو فى موادَّ غير معينة وهى جميع الامتهانات والتصرفات ؛ وإما أن يكون الكسب من البضائع وإعدادها للأعواض : إما بالتقلب بها فى البلاد ، أو احتكارها وارتقاب حِوَالةِ[٩٢١] الأسواق فيها ، و يسمى هذا تجارة .

فهذه وجوه المعاش وأصنافه وهى معنى ما ذكره المحققون من أهل الأدب والحكمة كالحريرى وغيره ، فإنهم قالوا : المعاش إمارة وتجارةٌ وفلاحة وصناعة . فأما الإمارة فليست بمذهب طبيعى للمعاش فلا حاجة بنا إلى ذكرها ؛ وقد تقدم شىء من أحوال الجبايات السلطانية وأهلها فى الفصل الثانى[١١٩٢] . وأما الفلاحة والصناعة والتجارة فهى وجوه طبيعية المعاش . أما الفلاحة فهى متقدمة عليها كلها بالذات إذ هى بسيطةٌ وطبيعيةٌ فطرية لا تحتاج إلى نظر ولا علمٍ ؛ ولهذا تُنسب فى الخليقة إلى آدم أبى البشر ، وأنه معلمها والقائم عليها ، إشارة إلى أنها أقدم وجوه المعاش وأنسبها إلى الطبيعة . وأما الصنائع فهى ثانيتها ومتأخرة عنها لأنها مركبة وعلمية تَصَرَّفُ فيها الأفكار والأنظار ؛ ولهذا لا توجد غالباً إلا فى أهل الحضر الذى هو متأخر عن البدو وثان عنه ؛ ومن هذا المعنى نسبت إلى إدريس الأب الثانى للخليقة ، فإنه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحى من الله

(١١٩٢) صوابه الفصل الثالث (الباب الثالث حسب اصطلاحنا) . وقد تكلم على ذلك فى الفصول الفرعية ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٧ من الباب الثالث (انظر صفحة ٦٦٧ وتوابعها) . ولعل الفصل الثالث فى التحرير الأول للمقدمة كان الفصل الثانى ، ثم تغير وضعه بدون أن يغير ابن خلدون هذه العبارة . انظر نظائر لذلك فى تعليقات ٤٠٢ ، ٤٤٢ ، ١١٢٤ .

تعالى . وأما التجارة وإن كانت طبيعية فى الكسب فالأكثر من طرقها ومذاهبها إنما هى تحيلات فى الحصول على مابين القيمتين فى الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضلة . ولذلك أباح الشرع فيه المكايسة[٩٢٥] (١١٩٣) ، لما أنه من باب المقامرة ، إلا أنه ليس أخذاً لمال الغير مجاناً ، فلهذا اختُص بالمشروعية .

٣ — فصل فى أن الخدمة ليست من المعاش الطبيعى

اعلم أن السلطان لا بد له من اتخاذ الخدمة فى سائر أبواب الإمارة والملك الذى هو بسبيله ، من الجندى والشرطى والكاتب . ويستكفى فى كل باب بمن يعلم غناءه[١٤٣] فيه ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله . وهذا كله مندرج فى الإمارة ومعاشها ؛ إذ كلهم ينسحب عليهم حكم الإمارة ، والملك الأعظم هو ينبوع جداولهم . وأما ما دون ذلك من الخدمة فسببها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو يكون عاجزاً عنها لما رَبِيَ عليه من خلق التنعم والترف ؛ فيتخذ من يتولى ذلك له ويُقْطِعُهُ عليه أجراً من ماله . وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان ؛ إذ الثقة بكل أحد عجز ؛ ولأنها تزيد فى الوظائف والخرج وتدل على العجز والخَنَث[٩٤٨] اللذين ينبغى فى مذاهب الرجولية التنزه عنهما . إلا أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها ؛ فهو ابن عوائده لا ابن نسبه . ومع ذلك فالخديم الذى يستكفى به ويوثق بغَنائه[١٤٣] كالمفقود ؛ إذ الخديم القائم بذلك لا يعدو أربع حالات : إما مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده ؛ وإما بالعكس فيهما ، وهو أن يكون غير مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده ؛ وإما بالعكس فى إحداهما فقط ، مثل أن يكون مضطلعاً غير موثوق أو موثوقاً غير مضطلع . فأما الأول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحداً استعماله

(١١٩٣) فى «ل» و «م» و « دار الكتاب اللبنانى » : « المكاسبة » ؛ وهو تحريف . انظر معنى « المكايسة » فى تعليق ٩٢٥ .

بوجه ؛ إذ هو باضطلاعه وثقته غنى عن أهل الرتب الدنية ومحتقر لمنال الأجر من الخدمة لاقتداره على أكثر من ذلك ، فلا يستعمله إلا الأمراء أهل الجاه العريض لعموم الحاجة إلى الجاه . وأما الصنف الثانى وهو من ليس بمضطلع ولا موثوق ، فلا ينبغى لعاقل استعماله لأنه يجحف بمخدومه فى الأمرين معاً ، فيضيع عليه لعدم الاضطلاع[(١١٩٤)] تارة ، ويذهب ماله بالخيانة أخرى، فهو على كل حال كَلٌّ على مولاه[١٤ب]. فهذان الصنفان لا يطمع أحد فى استعمالهما. ولم يبق إلا استعمال الصنفين الآخرين : موثوق غير مضطلع ؛ ومضطلع غير موثوق . وللناس فى الترجيح بينهما مذهبان ، ولكل من الترجيحين وجه . إلا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لأنه يؤمن من تضييعه ، ويُحاوَلُ على التحرز عن خيانته جهد الاستطاعة . وأما المضيع ولو كان مأموناً فضرره بالتضييع أكثر من نفعه . فاعلم ذلك واتخذه قانوناً فى الاستكفاء بالخدمة . والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء .

٤ — فصل فى أن ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز

ليس بمعاش طبيعى

اعلم أن كثيراً من ضعفاء العقول فى الأمصار يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض ويبتغون الكسب من ذلك ، ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية لا يفض خِتَـامها[٨٢٧] ذلك إلا من عثر على علمه ، واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان . فأهل الأمصار بإفريقية[٤٩ب] يرون أن الإفرنجة الذين كانوا قبل الإسلام بها دفنوا أموالهم كذلك، وأودعوها فى الصحف بالكتاب إلى أن يجدوا

(١١٩٤) فى جميع النسخ « الاصطناع » ، وهو تحريف كما يدل على ذلك السياق .

السبيل إلى استخراجها . وأهل الأمصار بالمشرق يرون مثل ذلك فى أمم القبط والروم والفرس ، و يتناقلون فى ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك إلى حفر موضع المال ممن لم يعرف طِلَّسْمَه ولا خبره ، فيجدونه خالياً أو معموراً بالديدان ، أو يشاهد الأموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم ، أو تميد به الأرض حتى يظنه خسفاً ، أو مثل ذلك من الهَذْر .

ونجد كثيراً من طلبة البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعى وأسبابه يتقربون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتحزمة (١١٩٤ب) الحواشى ، إما بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن باعطاء الأمارات عليها فى أماكنها ، يبتغون بذلك الرزق منهم بما[٤٤٥] يبعثونهم على الحفر والطلب و يموِّهون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه فى مثل هذا (١١٩٥) من منال الحكام والعقوبات . وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقى من دعواه ، وهو بمعزل عن السحر وطرقه ، فيولع[٤٨] كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدى على الاحتفار والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول . فإذا لم يعثروا على شىء ردوا ذلك إلى الجهل بالطِّلَّسْم الذى ختم به على ذلك المال ، يخادعون به أنفسهم عن اخفاق مطامعهم .

والذى يحمل على ذلك فى الغالب زيادة على ضعف العقل إنما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من التجارة والفلح والصناعة ، فيطلبونه بالوجوه المنحرفة ، وعلى غير المجرى الطبيعى من هذا وأمثاله ، عجزاً عن السعى فى المكاسب وركوناً إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب فى تحصيله واكتسابه ؛ ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه فى

(١١٩٤ب) هكذا فى «ل» و «م» . وفى «ن» : المنحزمة

(١١٩٥) هكذا فى جميع النسخ ، ولعل هنا كلمات ساقطة وتقديرها « حتى يكونوا بأمن »

نصب ومتاعب وجهد شديد أشد من الأول ، ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال العقوبات .

وربما يحمل على ذلك فى الأكثر زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حد النهاية حتى تقصر عنها وجوهُ الكسب ومذاهبه ، ولا تفى بمطالبها ، فاذا عجز عن الكسب بالمجرى الطبيعى لم يجد وليجة[٤٨١] فى نفسه إلا التمنى لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة ، ليفى له ذلك بالعوائد التى حصل فى أسرها ، فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده . ولهذا فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة ، ومن سكان الأمصار الكثيرة الترف المتسعة الأحوال ، مثل مصر وما فى معناها . فنجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكيمياء . هكذا بلغنى عن أهل مصر[١١٢٥] فى مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة ؛ لعلهم يعثرون منه على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير[١١٩٠] المياه لما[٥٨١] يرون أن غالب هذه الأموال الدفينة كلها فى مجارى النيل ، وأنه أعظم ما يستر دفيناً أو مختزناً فى تلك الآفاق . ويموه عليهم أصحاب تلك الدفاتر المفتعلة فى الاعتذار عن الوصول إليها بجرية النيل تستراً بذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه ، فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالأعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كَلَفاً[(١١٩٦)] بشأن السحر متوارثاً فى ذلك القطر عن أوليه ، فعلومهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم فى البرارى وغيرها ، وقصة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك . وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها إلى حكماء المشرق تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير[١١٩٠] بصناعة سحرية حسبما تراه فيها ، وهى هذه :

(١١٩٦) هكذا فى جميع النسخ . ولا بد أن يكون هنا تحريف وسقط . وتستقيم العبارة بوضعها فى مثل هذه الصيغة : « لتحصيل مبتغاه من هذه ، فيزداد كلفا بشأن السحر ، والكلف بالسحر أمر متوارث فى ذلك القطر عن أوليه » (أى عن الأولين منه) .

يا طالباً للسر فى التغوير ... اسمع كلام الصدق من خبير
دع عنك ماقد صنفوا فى كُتْبهم ... من قول بهتان ولفظ غرور
واسمع لصدق مقالتى ونصيحتى ... إن كنت ممن لا يرى بالزور
فإذا أردت تَغَوُّرَ البئر التى ... حارت لها الأوهام فى التدبير
صور كصورتك التى أوقفتها ... والرأس رأس الشبل فى التقوير
ويداه ماسكتان للحبل الذى ... فى الدلو ينشل من قرار البير
وبصدره هاء كما عاينتها ... عدد الطلاق احذر من التكرير
ويطأ على الطاآت غير ملامس ... مشى اللبيب الكيس النحرير
ويكون حول الكل خط دائر ... تربيعه أولى من التكوير
واذبح عليه الطير والطخه به ... واقصده عقب الذبح بالتبخير
بالسندروس وباللبان ومبيعة ... والقسط والبسه بثوب حرير
من أحمر أو أصفر لا أزرق ... لا أخضر فيه ولا تكدير
ويشده خيطان صوف أبيض ... أو أحمر من خالص التحمير
والطالع الأَسَدُ الذى قد بينوا ... ويكون بدء الشهر غير منير
والبدر متصل بسعد عطارد ... فى يوم سبت ساعة التدبير

يعنى أن تكون الطاآت بين قدميه كأنه يمشى عليها . وعندى أن هذه القصيدة من تمويهات المخرقين ، فلهم فى ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجيبة ، وتنتهى المخرقة(١١٩٧) والكذب بهم إلى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة بمثل هذا ويحتفرون الحفر ويضعون المطابق فيها والشواهد التى

(١١٩٧) « التخريق كثرة الكذب والتَخَرُّق خُلُق الكذب » (القاموس) . وقد وردت هاتان الكلمتان على هذه الصورة فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . وأما فى النسخ المتداولة فقد وردت فيها هاتان الكلمتان من مادة الخرف : « من تمويهات المتخرفين ... وتنتهى التخرفة » .

يكتبونها فى صحائف كذبهم . ثم يقصدون ضعفاء العقول بأمثال هذه الصحائف ، ويبعثون على اكتراء ذلك المنزل وسكناه ويوهمون أن به دفيناً من المال لا يعبر عن كثرته . ويطالبون بالمال لاشتراء العقاقير والبخورات لحل الطلاسم ، ويعدونه بظهور الشواهد التى قد أعدوها هنالك بأنفسهم ومن فعلهم ، فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع ولُبِّس[٤٥٩] عليه من حيث لا يشعر ، وبينهم فى ذلك اصطلاح فى كلامهم يُلَبِّسون[٤٥٩] به عليهم ليخفى عند محاورتهم فيما يتلونه من حفر وبخور وذبح حيوان وأمثال ذلك .

وأما الكلام فى ذلك على الحقيقة فلا أصل له فى علم ولا خبر . واعلم أن الكنوز وإن كانت توجد لكنها فى حكم النادر على وجه الاتفاق لا على وجه القصد إليها ، وليس ذلك بأمر تعم به البلوى ، حتى يدخر الناس أموالهم تحت الأرض ويختمون عليها بالطلاسم لا فى القديم ولا فى الحديث . والرِّكاز[١٠٩٤] الذى ورد فى الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفين الجاهلية إنما يوجد بالعثور والاتفاق ، لا بالقصد والطلب . وأيضاً فمن اختزن ماله وختم عليه بالأعمال السحرية فقد بالغ فى إخفائه فكيف ينصب عليه الأدلة والأمارات لمن يبتغيه ، ويكتب ذلك فى الصحائف حتى يطلع على ذخيرته أهل الأعصار والآفاق : هذا يناقض قصد الإخفاء . وأيضاً فأفعال العقلاء لا بد[٥٧] وأن تكون لغرض مقصود فى الانتفاع ؛ ومن اختزن المال فانه يختزنه لوُلده أو قريبه أو من يؤثره . وأما أن يقصد إخفاءه بالكلية عن كل أحد ، وإنما هو للبلاء والهلاك ، أو لمن لا يعرفه بالكلية ممن سيأتى من الأمم ، فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه .

وأما قولهم أين أموال الأمم من قبلنا وماعلم فيها من الكثرة والوفور ، فاعلم أن الأموال من الذهب والفضة والجواهر والأمتعة إنما هى معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن ، والعمران يظهرها

بالأعمال الإنسانية و يزيد فيها أو ينقصها . ومايوجد منها بأيدى الناس فهومتناقل متوارث . وربما انتقل من قطر إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه والعمران الذى يستدعى له . فإن نقص المال فى المغرب و إفريقية فلم ينقص ببلاد الصقالبة والإفرنج ؛ وإن نقص فى مصر والشام فلم ينقص فى الهندوالصين . و إنما هى الآلات والمكاسب والعمران يوفرها أو ينقصها . مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات و يسرع إلى اللؤلؤ والجوهر أعظم مما يسرع إلى غيره ، وكذا الذهب والفضة[١١٩٨] والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب بأعيانها لأقرب وقت .

وأما ماوقع فى مصر من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر فى مَلَكة القبط[١١٩٩] منذ آلاف أو يزيد من السنين ، وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجوهر واللآلىء على مذهب من تقدم من أهل الدول . فلما انقضت دولة القبط[١١٩٩] وملك الفرس بلادهم نقّروا على ذلك فى قبورهم وكشفوا عنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف كالأهرام من قبور الملوك وغيرها . وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد . ويعثر على الدفين فيها فى كثير من الأوقات . أما ما يدفنونه من أموالهم أو ما يكرمون به موتاهم فى الدفن من أوعية وتوابيت من الذهب والفضة معدة لذلك ، فصارت قبور القبط[١١٩٩] منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها ، فلذلك عنى أهل مصر بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها ؛ حتى إنهم حين ضربت

(١١٩٨) هذا غير صحيح فيما يتعلق بالذهب والفضة ؛ فان من أهم خواص هذين المعدنين أنهما غير قابلين للاتحاد مع الهواء أو الماء أو أى جسم آخر . فهما لا يصدآن ولا تتغير خواصهما الكيميائية بتقادم الزمن ولا يفنيان ولا يبيدان بالاستعمال . وقد كانت هذه الخاصة من بين العوامل التى جعلتهما أكثر المواد صلاحية لقياس قيم الأشياء ، فاتخذت منهما النقود فى الأمم المتحضرة . (انظر تفصيل هذا الموضوع فى كتابنا « الاقتصاد السياسى » (الطبعة الخامسة ، صفحات ٢٤٩ — ٢٥٨) .

(١١٩٩) يقصد بالقبط الفراعنة أى قدماء المصريين .

المكوسُ على الأصنافِ آخرَ الدولةِ ضُربت على أهل المطالب ، وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمق والمهوسين[١٢٠٠] ، فوجد بذلك المتعاطون من أهل الأطماع الذريعة إلى الكشف عنه والزعم[١٢٠١] باستخراجه . وما حصلوا إلا على الخيبة فى جميع مساعيهم ، نعوذ بالله من الخسران . فيحتاج من وقع له شىء من هذا الوسواس وابتلى به أن يتعوذ بالله من العجز والكسل فى طلب معاشه ، كما تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ، ولا يشغل نفسه بالمحالات والمكاذب من الحكايات . والله يرزق من يشاء بغير حساب .

٥ — فصل فى ان الجاه مفيد للمال

وذلك أنا نجد صاحب المال والحظوة فى جميع أصناف المعاش أكثر يساراً وثروة من فاقد الجاه . والسبب فى ذلك أن صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يُتقرَّبُ بها إليه فى سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه . فالناس معينون له بأعمالهم فى جميع حاجاته من ضرورى أو حاجى أو كمالى ، فتحصل قيم تلك الأعمال كلها من كسبه . وجميع ما شأنه أن تبذل فيه الأعواض من العمل ، يستعمل فيها الناس من غير عوض ، فتتوفر قيم تلك الأعمال عليه . فهو بين قيم للأعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة إلى إخراجها فتتوفر عليه . والأعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لأقرب وقت ، ويزداد مع الأيام يساراً وثروة . ولهذا المعنى كانت الإمارة أحد أسباب المعاش كما قدمناه . وفاقد الجاه بالكلية ولو كان

(١٢٠٠) « الهَوَس طرف من الجنون وهو مُهَوَّس كمُعَظَّم » (القاموس) .

(١٢٠١) هكذا وردت هذه الكلمة فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . وقد وردت فى النسخ المتداولة على هذه الصورة : « والذرع » . والذَّرَع الطَّمَع والناقة التى يستتر بها رامى الصيد كالذريعة (من القاموس) . وكلا المعنيين محتمل فى عبارة ابن خلدون ، وإن كان المعنى الأول (الطمع) أوضح وأكثر اتساقا مع السياق (وكان الأحسن حينئذ أن يقول : الذرع فى استخراجه) . وأكثر من هذا كله اتساقاً مع السياق كلمة « الزعم » التى وردت فى النسخة الخطية واعتمدناها فى المتن .

صاحب مال فلا يكون يساره إلا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه ؛ وهؤلاء هم أكثر التجار ؛ ولهذا تجد أهل الجاه منهم يكونون أيسر بكثير . ومما يشهد لذلك أنا نجد كثيراً من الفقهاء وأهل الدين والعبادة إذا اشتهروا حسُنَ الظن بهم، واعتقد الجمهور معاملة الله فى إرفادهم (١٢٠٢) فأخلص الناس فى إعانتهم على أحوال دنياهم والاعتمال فى مصالحهم ، أسرعت إليهم الثروة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتنى ، إلا ما يحصل لهم من قيم الأعمال التى وقعت المعونة بها من الناس لهم . رأينا من ذلك أعداداً فى الأمصار والمدن وفى البدو ، يسعى لهم الناس فى الفلح والتَّجْر ، (١٢٠٢ ب) وكلٌّ قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه ، فينمو ماله ويعظم كسبه ، ويتأثّل الغنى من غير سعى ، ويعجب من لا يفطن لهذا السر فى حال ثروته وأسباب غناه ويساره . والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب .

٦ — فصل فى أن السعادة والكسب إنما يحصل غالبا لأهل الخضوع والتملق وأن هـذا الخلق من أسباب السعادة

قد سلف لنا فيما سبق أن الكسب الذى يستفيده البشر إنما هو قيم أعمالهم (١٢٠٣) . ولو قُدِّرَ أحد عُطُل (١٢٠٤) عن العمل جملة لكان فاقد الكسب

(١٢٠٢) الرِّفد العطاء والصلة ومصدر رَفَدَه يرفُده أعطاه ، والإرفاد الإعانة والإعطاء (من القاموس) .

(١٢٠٢ ب) التَّجْر التِّجارة ، يقال تَجَر تَجْراً من باب قتل (المصباح والقاموس) . وقد وردت هذه الكلمة محرفة بالنون « النجر » فى جميع النسخ المتداولة ، ووردت صحيحة بالتاء فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ .

(١٢٠٣) عرض لذلك فى الفصل الأول من هـذا الباب : « فصل فى حقيقة الرزق والكسب ، وأن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية » (انظر صفحات ٨٩٣ — ٨٩٨ وانظر كذلك تعليق ١١٢٤) .

(١٢٠٤) عَطِل كفرح عَطَلا بالتحريك وعطولا وتعطل فهو عاطل وعُطُل، وأصله المرأة إذا لم يكن عليها حلىٌّ . فعُطُل فى عبارة ابن خلدون صفة لأحد .

بالكلية. وعلى قدر عمله وشرفه بين الأعمال وحاجة الناس إليه يكون قدر قيمته. وعلى نسبة ذلك نمو كسبه أو نقصانه. وقد بينا آنفاً أن الجاه يفيد المال[١٢٠٥] لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس إليه بأعمالهم وأموالهم فى دفع المضار وجلب المنافع، وكان ما يتقربون به من عمل أو مال عوضاً عما يحصلون عليه بسبب الجاه من الأغراض فى صالح أو طالح. وتصير تلك الأعمال فى كسبه، وقيمها أموال وثروة له. فيستفيد الغنى واليسار لأقرب وقت. ثم إن الجاه متوزع فى الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة: ينتهى فى العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية؛ وفى السفل إلى من لا يملك ضراً ولا نفعاً بين أبناء جنسه؛ وبين ذلك طبقات متعددة: حكمة الله فى خلقه، بما[٤٤] ينتظم معاشهم وتتيسر مصالحهم ويتم بقاؤهم. لأن النوع الإنسانى لا يتم وجوده وبقاؤه إلا بتعاون أبنائه على مصالحهم؛ لأنه قد تقرر أن الواحد منهم لا يتم وجوده إلا بالتعاون؛ وإنه إن ندر[١٢٠٦] فقد ذلك فى صورة مفروضة لا يصح بقاؤه (١٢٠٦ ب).

ثم إن هذا التعاون لا يحصل إلا بالإكراه عليه لجهلهم فى الأكثر بمصالح النوع، ولما جعل لهم من الاختيار، وأن أفعالهم إنما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع، وقد يمتنع[١٢٠٧] من المعاونة فيتعين حمله عليها. فلا بد من حامل يكره أبناء النوع على مصالحهم، لتتم الحكمة الإلهية فى بقاء هذا النوع. وهذا

(١٢٠٥) بيّن ذلك فى الفصل السابق لهذا مباشرة.

(١٢٠٦) «ندر الشيء ندورا سقط من بين أشياء فظهر» (القاموس) ويقصد إن حدث فى صورة شاذة أن وجد شخص غير متعاون مع غيره فإنه لا يتم بقاؤه.

(١٢٠٦ ب) وردت هذه العبارة محرفة فى جميع النسخ. ففى النسخ المتداولة وردت بهذا النص: «لأن النوع الإنسانى لا يتم وجوده وبقاؤه إلا بتعاون، وأنه وإن ندر فقد ذلك فى صورة مفروضة فلا يصح بقاؤه». — وفى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ وردت بهذا النص: «لأن النوع الإنسانى لما كان لا يتم وجوده وبقاؤه إلا بتعاون أبنائه على مصالحهم، لأنه قد تقرر أن الواحد منهم لا يتم وجوده إلا بالتعاون، وإنه وإن ندر ذلك فى صورة مفروضة فلا يصح بقاؤه».

(١٢٠٧) الفاعل ضمير يدل عليه ما قبله، أى وقد يمتنع بعض الناس.

معنى قوله تعالى : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيّاً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون[(١٢٠٨)] » . فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة ، ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم فى العدل بأحكام الشرائع والسياسة ، وعلى أغراضه فيما سوى ذلك . ولكن الأول مقصود فى العناية الربانية بالذات ، والثانى داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة فى القضاء الإلهى ؛ لأنه قد لا يتم وجود الخير الكثير إلا بوجود شر يسير من أجل المواد[(١٢٠٩)] ، فلا يفوت الخير بذلك ، بل يقع على ما ينطوى عليه من الشر اليسير ، وهذا معنى وقوع الظلم فى الخليقة ، فتفهم .

ثم إن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطباق ، وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد بذى الجاه من أهل الطبقة التى فوقه ؛ ويزداد كسبه تصرفا فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه والجاه على ذلك داخل على الناس فى جميع أبواب المعاش ، ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذى فيه صاحبه . فإن كان الجاه متسعاً كان الكسب الناشىء عنه كذلك ، وإن كان ضيقاً قليلا فمثله . وفاقد الجاه وإن كان له مال فلا يكون يساره إلا بمقدار عمله أو ماله ونسبة سعيه ذاهباً وآيباً فى تنميته كأكثر التجار وأهل الفلاحة فى الغالب، وأهل الصنائع كذلك إذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم ، فإنهم يصيرون إلى الفقر والخصاصة [٩٦٤] فى الأكثر ، ولا تسرع إليهم ثروة ، وإنما يُرَمِّقون العيش ترميقاً[(١٢١٠)] ويدافعون ضرورة الفقر

(١٢٠٨) آخر آية ٣٢ من سورة الزخرف وهى سورة ٤٣ ، ونصها « أهم يَقْسِمون رحمة ربك ، نحن قَسَمْنَا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضَهم فوق بعض درجات ... الخ » .

(١٢٠٩) هكذا فى جميع النسخ ، وعبارة « من أجل المواد » غير واضحة الدلالة .

(١٢١٠) « هو مُرَمِّق العيش كمُعَظَّم ضَيِّقه أو خسيسه ، وعيش رَمِقٌ يمسك الرمق » (القاموس) .

obeikandi.com

مدافعة و إذا تقرر ذلك وأن الجاه متفرع وأن السعادة والخير مقترنان بحصوله، علمت أن بذله و إفادته من أعظم النعم وأجلها، وأن باذله من أجلّ المنعمين. و إنما يبذله لمن تحت يديه فيكون بذله بيد عالية وعزة، فيحتاج طالبه ومبتغيه إلى خضوع وتملق كما يسأل أهل العز والملوك، و إلا فيتعذر حصوله. فلذلك قلنا إن الخضوع والتملق من أسباب حصول هذا الجاه المُحَصِّل للسعادة والكسب، و إن أكثر أهل الثروة والسعادة بهذا التملق. ولهذا نجد الكثير ممن يتخلق بالترفع والشمم لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون فى التكسب على أعمالهم، ويصيرون إلى الفقر والخصاصة.

واعلم أن هذا الكبر والترفع من الأخلاق المذمومة إنما يحصل من توهم الكمال، وأن الناس يحتاجون إلى بضاعته من علم أو صناعة، كالعالم المتبحر فى علمه، أو الكاتب المجيد فى كتابته، أو الشاعر البليغ فى شعره؛ وكل محسن فى صناعته يتوهم أن الناس محتاجون لما بيده، فيحدث له ترفع عليهم بذلك. وكذا يتوهم أهل الأنساب، ممن كان فى آبائه ملك أو عالم مشهور أو كامل فى طور، يعتبرون بما رأوه أو سمعوه من حال آبائهم فى المدينة، ويتوهمون أنهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم إليهم ووراثتهم عنهم. فهم متمسكون فى الحاضر بالأمر المعدوم. وكذلك أهل الحيلة والبصر والتجارب بالأمور قد يتوهم بعضهم كمالا فى نفسه بذلك واحتياجاً إليه.

وتجد هؤلاء الأصناف كلهم مترفعين لا يخضعون لصاحب الجاه ولا يتملقون لمن هو أعلى منهم، ويستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس. فيستنكف أحدهم عن الخضوع ولو كان للملك ويعده مذلة وهواناً وسفهاً، ويحاسب الناس فى معاملتهم إياه بمقدار ما يتوهم فى نفسه، ويحقد على من قصر له فى شىء مما يتوهمه من ذلك، وربما يدخل على نفسه الهموم والأحزان من تقصيرهم فيه، ويستمر فى عناء عظيم من إيجاب الحق لنفسه أو إباية الناس له من

ذلك . ويحصل له المقت من الناس لما فى طباع البشر من التأله ؛ وقل أن يسلم أحد منهم لأحد فى الكمال والترفع عليه ، إلا أن يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة ؛ وهذا كله فى ضمن الجاه . فاذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبين لك ، مقته الناس بهذا الترفع ، ولم يحصل له حظ من إحسانهم ، وفقد الجاه لذلك من أهل الطبقة التى هى أعلى منه ، لأجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهدهم وغِشْيان[١١٢٨] منازلهم ، ففسد معاشه ، وبقى فى خصاصة[٩٦٤] وفقر أو فوق ذلك بقليل ، وأما الثروة فلا تحصل له أصلا . ومن هذا اشتهر بين الناس أن الكامل فى المعرفة محروم من الحظ ، وأنه قد حوسب بما رُزِقَ من المعرفة واقتُطِع له ذلك من الحظ؛ وهذا معناه . ومن خلق لشىء يُسِّرَ له . والله المقدر لا رب سواه .

ولقد يقع فى الدول اضطراب فى المراتب من أجل هذا الخُلُق[(١٢١١)] ، ويرتفع فيها كثير من السِّفلة[١١٦٢] وينزل كثير من العِلْية[٩١] بسبب ذلك . وذلك أن الدول إذا بلغت نهايتها من التغلب والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ، ويئس من سواهم من ذلك ؛ وإنما صاروا فى مراتب دون مرتبة الملك تحت يد السلطان وكأنهم خَوَل له . فاذا استمرت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ فى المنزلة عند السلطان كل من انتمى إلى خدمته وتقرب إليه بنصيحة ، واصطنعه السلطان لغَنائه[١٤٣] فى كثير من مهماته . فتجد كثيراً من السوقة يسعى فى التقرب من السلطان بجده ونصحه ، ويتزلف إليه بوجوه خدمته ، ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملق له ولحاشيته وأهل نسبه ، حتى يرسخ قدمه معهم ، وينظمه السلطان فى جملته ، فيحصل له بذلك حظ عظيم

(١٢١١) وردت هذه العبارة فى جميع النسخ المتداولة محرفة فى هذه الصيغة . « ولقد يقع فى الدولة أضراب فى المراتب من أهل هذا الخلق » . وقد عثرنا عليها صحيحة كما أثبتناه فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ .

من السعادة ، و ينتظم فى عدد أهل الدولة ، وناشئة الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذللوا صعابها ومهدوا أكنافها معتزون بما كان لآبائهم فى ذلك من الآثار ، تشمخ به نفوسهم على السلطان و يعتدون بآثاره ، ويجرون فى مضمار الدالة بسببه فيمقتهم السلطان لذلك و يباعدهم[١٢١٢] ، و يميل إلى هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتدون بقديم ، ولا يذهبون إلى دالّة ولا ترفع ، إنما دأبهم الخضوع له والتملق والاعتمال فى غرضه متى ذهب إليه ، فيتسع جاههم ، وتعلو منازلهم ، وتنصرف إليهم الوجوه والخواطر ، بما يحصل لهم من قبل السلطان والمكانة عنده ، و يبقى ناشئة الدولة فيما هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم ، لا يزيدهم ذلك إلا بعداً من السلطان ومقتاً و إيثاراً لهؤلاء المصطنعين عليهم ، إلى أن تنقرض الدولة . وهذا أمر طبيعى فى الدولة . ومنه جاء شأن المصطنعين فى الغالب . والله سبحانه وتعالى أعلم ، و به التوفيق لا رب سواه .

٧ — فصل فى أن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم فى الغالب

والسبب لذلك أن الكسب كما قدمناه قيمة الأعمال[١٢٠٣] وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها ، فإذا كانت الأعمال ضرورية فى العمران عامة البلوى به ، كانت قيمتها أعظم وكانت الحاجة إليها أشد . وأهل هذه الصنائع الدينية لا تضطر إليهم عامة الخلق ، وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه ؛ وإن احتيج إلى الفتيا والقضاء فى الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم ،

(١٢١٢) وردت هذه العبارة فى جميع النسخ المتداولة محرفة تحريفا كبيرا فى هذه الصيغة المجردة من الدلالة : « وناشئة الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذللوا أضغانهم ومهدوا أكنافهم مغترون بما كان لآبائهم فى ذلك من الآثار ، لم تسمح به نفوسهم على السلطان ويعتدون بآثاره ، ويجرون في مضمار الدولة بسببه ، فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدهم » . وقد عثرنا عليها صحيحة كما أثبتناه فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ .

فيقع الاستغناء عن هؤلاء فى الأكثر . وإنما يهتم بإقامة مراسمهم صاحب الدولة بماله من النظر فى المصالح ، فيقسم لهم حظاً من الرزق على نسبة الحاجة إليهم على النحو الذى قررناه ، لا يساويهم بأهل الشوكة ولا بأهل الصنائع ، من حيث الدين والمراسم الشرعية ، لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران ، فلا يصح فى قسمهم إلا القليل . وهم أيضاً لشرف بضائعهم أعزة على الخلق وعند نفوسهم ، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منه حظاً يستدرون به الرزق ، بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك ، لما هم فيه من الشغل بهذه الصنائع الشريفة المشتملة على أعمال الفكر والبدن ، بل[٢٤٤] ولا يسمح ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا لشرف صنائعهم ، فهم بمعزل عن ذلك . فلذلك لا تعظم ثروتهم فى الغالب . ولقد باحثت بعض الفضلاء فأنكر ذلك علىّ ، فوقع بيدى أوراق مخرّقة[(١٢١٣)] من حسابات الدواوين بدار المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج ، وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين فوقفته عليه ، وعلم منه صحة ما قلته ورجع إليه ، وقضينا العجب من أسرار الله فى خلقه وحكمته فى عوالمه . والله الخالق القادر لا رب سواه .

٨ — فصل فى أن الفلاحة من معاش المستضعفين وأهل العافية من البدو

وذلك لأنه أصيل فى الطبيعة وبسيط فى منحاه ، ولذلك لا تجده ينتحله أحد من أهل الحضر فى الغالب ، ولا من المترفين ، ويختص منتحله بالمذلة . قال صلى الله عليه وسلم ، وقد رأى السِكّة[(١٢١٤)] ببعض دور الأنصار : « ما دخلت

(١٢١٣) « التخريق التزيق والمخرق المزق » (القاموس) وفى النسخة الخطية المشار اليها فى تعليق ٩٠٠ « مخرمة » بالميم .

(١٢١٤) السِكّة حديدة الفدّان وهو المحراث (القاموس)

هذه دار قوم إلا دخله الذل » ؛ وحمله البخارى على الاستكثار منه وترجم عليه باب مايحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع أو تجاوز الحد الذى أُمِر به. والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغرم المفضى إلى التحكم واليد العالية ، فيكون الغارم ذليلا بائساً بما[٤٤٥] تتناوله أيدى القهر والاستطالة . قال صلى الله عليه وسلم : «لاتقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرماً » ، إشارة إلى الملك العضوض[٨٩٧] القاهر للناس الذى معه التسلط والجور، ونسيانُ حقوق الله تعالى فى المتمولات، واعتبارُ الحقوق كلها مغرماً للملوك والدول . والله قادر على مايشاء . والله سبحانه وتعالى أعلم و به التوفيق .

٩ — فصل فى معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها

اعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص و بيعها بالغلاء أيا ما كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش . وذلك القدر النامى يسمى ربحاً . فالمحاول لذلك الربح إما أن يختزن السلعة و يتحين بها حوالة[٩٢١] الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه ، و إما بأن ينقله إلى بلد آخر تنفُق[٤٤٤] فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذى اشتراها فيه، فيعظم ربحه. ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة : أنا أعلمها لك فى كلمتين : « اشتر الرخيص و بع الغالى ، وقد حصلت التجارة[(١٢١٥)] » ، إشارة منه بذلك إلى المعنى الذى قررناه . والله سبحانه وتعالى أعلم و به التوفيق لارب سواه .

(١٢١٥) هكذا وردت هذه العبارة فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ وهى أصح تركيبا من العبارة التى وردت فى جميع النسخ المتداولة وهى : « اشتراء الرخيص وبيع الغالى فقد حصلت التجارة ».

١٠ — فصل فى أى أصناف الناس يحترف بالتجارة وأيهم ينبغى له اجتناب حرفها

قد قدمنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن الشراء ، إما بانتظار حوالة[٩٢١] الأسواق أو نقلها إلى بلد هى فيه أنفق[٤٤] وأغلى ، أو بيعها بالغلاء على الآجال . وهذا الربح بالنسبة إلى أصل المال يسير . إلا أن المال إذا كان كثيراً عظم الربح ، لأن القليل فى الكثير كثير . ثم لا بد فى محاولة هذه التنمية الذى هو الربح من حصول هذا المال بأيدى الباعة بشراء البضائع و بيعها وتقاضى أثمانها[(١٢١٦)] . وأهل النصفة[٥٧٢] قليل ؛ فلابد من الغش والتطفيف المجحف بالبضائع ، ومن المطل فى الأثمان المجحف بالربح ، كتعطيل المحاولة فى تلك المدة و بها نماؤه ، ومن الجحود والإنكار المسحت[(١٢١٧)] لرأس المال إن لم يتقيد بالكتاب والشهادة . وعناء[١٤٣] الحكام فى ذلك قليل ، لأن الحكم إنما هو على الظاهر . فيعانى التاجر من ذلك أحوالا صعبة ، ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح إلا بعظم العناء والمشقة ، أو لا يحصل أو يتلاشى رأس ماله . فان كان جريئاً على الخصومة ، بصيراً بالحسبان[٧٦٩] ، شديد المماحكة[(١٢١٨)] ، مقداماً على الحكام ، كان ذلك أقرب له إلى النصفة[٥٧٢]

(١٢١٦) هكذا وردت هذه العبارة فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ ، وهى أوضح من العبارة التى وردت فى جميع النسخ المتداولة ، وهى . « ثم لا بد فى محاولة هذه التنمية من حصول هذا المال بأيدى الباعة فى شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم فى تقاضى أثمانها » .

(١٢١٧) « السُّحْت بالضم و بضمتين الحرام ، وما خبث من المكاسب ، وأسحت اكتسب السحت ، وأسحت الشىء استأصله » . والمعنى الأخير هو المقصود فى عبارة ابن خلدون أى المستأصل لرأس المال .

(١٢١٨) المماحكة اللجاج وتماحكا تلاجا وهو مماحك (من القاموس) .

بجراءته منهم ومما حكته؛ وإلا فلا بد له من جاه يدّرِع(١٢١٩) به ، يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام على إنصافه من معامليه ، فيحصل له بذلك النَّصَفَة٥٧٢ في ماله طوعاً في الأول وكرها في الثاني . وأما من كان فاقداً للجراءة والإقدام من نفسه فاقد الجاه من الحكام فينبغي له أن يجتنب الاحتراف بالتجارة ، لأنه يعرض ماله للضياع والذهاب ويصير مأكلة للباعة ، ولا يكاد ينتصف منهم . لأن الغالب في الناس، وخصوصاً الرعاع والباعة، شرهون إلى ما في أيدي الناس سواهم ، متوثبون عليه ؛ ولولا وازع الأحكام لأصبحت أموال الناس نهباً: « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين(١٢٢٠) » .

١١ — فصل أن خُلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك

وذلك أن التجار في غالب أحوالهم إنما يعانون البيع والشراء ، ولا بد فيه من المكايسة٩٢٥ ضرورة . فإن اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها ؛ وهي ، أعني خلق المكايسة ، بعيدة عن المروءة التي تتخلق بها الملوك والأشراف . وأما إن استرذل خُلُقُه بما يتبع ذلك في أهل الطبقة السفلى منهم ، من المماحكة١٢١٨ والغش والخِلابة١١٤٧ وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأثمان رداً وقبولا ، فأجدِرْ بذلك الخلق أن يكون في غاية المذلة لما هو معروف . ولذلك تجد أهل الرياسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لاجل ما يُكْسِبُ من هذا الخلق . وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماه لشرف نفسه وكرم خلاله ، إلا أنه في النادر بين الوجود . والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه ، وهو رب الأولين والآخرين .

(١٢١٩) ادّرع الرجل لبس درع الحديد كتدرع » (القاموس) . والمعنى يتخذه درعا .

(١٢٢٠) آخر آية ٢٥١ من سورة البقرة وهي السورة الأولى .

١٢ — فصل فى نقل التاجر للسلع

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع إلا ما تعم الحاجة إليه من الغنى والفقير والسلطان والسوقة ، إذ فى ذلك نَفَاقُ[٤٤] سلعته . وأما إذا اختص نقله بما يحتاج إليه البعض فقط ، فقد يتعذر نفاق سلعته حينئذ بإعواز الشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض ، فتكسد سوقه وتفسد أرباحه . وكذلك إذا نقل السلعة المحتاج إليها فإنما ينقل الوسط من صنفها ؛ فإن العالى من كل صنف من السلع إنما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة ، وهم الأقل ؛ وإنما يكون الناس أسوة فى الحاجة إلى الوسط من كل صنف . فليتحر ذلك جهده ففيه نفاق[٤٤] سلعته أو كسادها . وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة أو فى شدة الخطر فى الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم أرباحاً وأكفل بحوالة[٩٢١] الأسواق . لأن السلعة المنقولة حينئذ تكون قليلة مُعْوِزَةً لبعد مكانها أو شدة الغَرَرِ[١٥١] فى طريقها ، فيقل حاملوها ويعز وجودها ؛ وإذا قلت وعزت غلت أثمانها . وأما إذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل[(١٢٢١)] بالأمن ، فإنه حينئذ يكثر ناقلوها ، فتكثر وترخص أثمانها ، ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالا ، لبعد طريقهم ومشقته ، واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش ، لا يوجد فيها الماء إلا فى أماكن معلومة يهتدى إليها أدِلاَّءُ[٦٦] الركبان ، فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده إلا الأقل من الناس ؛ فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء ؛ وكذلك سلعنا لديهم ، فتعظم بضائع التجار من تناقلها ، ويسرع إليهم الغنى

(١٢٢١) السابل من الطرق المسلوك ، وأسبلت الطريق كثرت سابلتها . هذا وفى جميع النسخ « سابل » بالضم على أن الجملة حال ؛ والأصح أن ينصب على أن الجملة معطوفة على ما قبلها فيكون سابلا خبرا لكان المقدرة فى الجملة الثانية المعطوفة .

والثروة من أجل ذلك . وكذلك المسافرون من بلادنا إلى المشرق لبعد الشُّقَّة ٥٥ب أيضاً . وأما المترددون فى أفق واحد ما بين أمصاره و بلدانه ففائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة لـكثرة السلع وكثرة ناقليها . و« الله هو الرزاق ذو القوة المتين »[١٢٢٢] .

١٣— فصل فى الاحتكار

ومما اشتهر عند ذوى البصر والتجربة فى الأمصار أن احتكار الزرع لتحين أوقات الغلاء مشؤوم وأنه يعود على فائدته[١٢٢٣] بالتلف والخسران . وسببه والله أعلم أن الناس لحاجتهم إلى الأقوات مضطرون إلى ما يبذلون فيها من المال اضطراراً ، فتبقى النفوس متعلقة به ، وفى تعلق النفوس بمالها سر كبير فى و باله على من يأخذه مجاناً . ولعله الذى اعتبره الشارع فى أخذ أموال الناس بالباطل . وهذا و إن لم يـكن مجاناً فالنفوس متعلقة به ، لإعطائه ضرورة من غير سعة فى العذر فهو كالمكره . وما عدا الأقوات والمأكولات من المبيعات لا اضطرار للناس إليها ، و إنما يبعثهم عليها التفنن فى الشهوات ، فلا يبذلون أموالهم فيها إلا باختيار وحرص ، ولا يبقى لهم تعلق بما أعطوه . فلهذا يـكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعته لما يأخذه من أموالهم فيفسد ربحه . والله تعالى أعلم .

وسمعت فيما يناسب هـذا حكاية ظريفة عن بعض مَشْيَخة ١١٦٣ المغرب . أخبرنى شيخنا أبو عبد الله الآبِلِىُّ ١٠٥٩،٢٣٢ قال : حضرت عند القاضى بفاس لعهد السلطان أبى سعيد ، وهو الفقيه أبو الحسن المليلى وقد عرض عليه أن يختار

(١٢٢٢) آية ٥٨ من سورة الذاريات ، وهى سورة ٥١ ، ونصها « إن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين » .

(١٢٢٣) هكذا فى جميع النسخ ، ولعل كلمة « فائدته » محرفة عن « صاحبه » .

obeikandi.com

بعض الألقاب المخزنية[١٢٢٤] لجرايته قال ، فاطرق مليا ثم قال لهم : من مكس الخمر . فاستضحك الحاضرون من أصحابه، وعجبوا ، وسألوه عن حكمة ذلك فقال : إذا كانت الجبايات كلها حراماً فأختار منها ما لا تتابعه نفس معطيه ، والخمر قل أن يبذل فيها أحد ماله الا وهو طرب مسرور بوجدانه غير آسف عليه ، ولا متعلقة به نفسه . وهذه ملاحظة غريبة . والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن الصدور[١٢٢٥] .

١٤ — فصل فى أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين بالرخيص

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه إنما هو بالصنائع أو التجارة ؛ والتجارة هى شراء البضائع والسلع وادخارها يتحين بها حوالة[٩٢١] الأسواق بالزيادة فى أثمانها و يسمى ربحا، و يحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائماً . فإذا استديم الرخص فى سلعة أو عَرْض[١٢٢٦] من مأكول أو ملبوس أو متمول على الجملة ، ولم يحصل للتاجر حوالة[٩٢١] الأسواق فسد الربح والنماء بطول تلك المدة ، وكسدت سوق ذلك الصنف ، فقعد التجار عن السعى فيها ، وفسدت رءوس أموالهم .

(١٢٢٤) هكذا فى جميع النسخ ، ويظهر أن هذا كان تعبيرا اصطلاحيا متعارفا عليه فى عصرهم . والمعنى يختار بعض أبواب الدخل ليأخذ منها حرتبه .

(١٢٢٥) لم يتكلم ابن خلدون على الاحتكار من ناحيتيه الاقتصادية والاجتماعية ، ويحال القول فيهما ذو سعة كبيرة ، ويتسق مع موضوع بحثه فى هذا الباب ، وإنما تكلم عليه من ناحية تعلق نفوس المشترين بما يبذلونه من أثمان باهظة فى المواد المحتكرة ، وأثر هذا التعلق فيما يكسبه المحتكر . وهذه ناحية غريبة كل الغرابة عن الموضوع وعن اتجاهات البحث ، وتقوم على المعتقدات المتصلة بالتشاؤم وتعلق النفوس بأموالها . . . وما إلى ذلك .

(١٢٢٦) العَرْض بالسكون المتاع ، والجمع عُرُوض مثل فَلْس وفلوس ، ومنه عروض التجارة (من المصباح) .

واعتبر ذلك أولا بالزرع فإنه إذا استديم رخصه يفسد به حال المحترفين، بسائر أطواره من الفلح والزراعة لقلة الربح فيه وندارته(١٢٢٧) أو فقده، فيفقدون النماء فى أموالهم أو يجدونه على قلة، ويعودون بالإنفاق على رؤوس أموالهم، وتفسد أحوالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة[٩٦٤]، ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرث إلى صيرورته مأكولا. وكذا يفسد حال الجند إذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفلح زرعاً؛ فإنها تقل جبايتهم من ذلك ويعجزون عن إقامة الجندية التى هم بسببها ومطالبون بها ومنقطعون لها، فتفسد أحوالهم.

وكذا إذا استديم الرخص فى السكر أو العسل فسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه. وكذا الملبوسات إذا استديم فيها الرخص.

فإذاً الرخص المفرط يجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص. وكذا الغلاء المفرط أيضاً. وإنما معاش الناس وكسبهم فى التوسط من ذلك وسرعة حوالة[٩٢١] الأسواق. وعلم ذلك يرجع إلى العوائد المتقررة بين أهل العمران. وإنما يُحْمَدُ الرخص فى الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه، واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغنى والفقير. والعالة من الخلق هم الأكثر فى العمران. فيعم الرفق بذلك ويرجح جانب القوت على جانب التجارة فى هذا الصنف الخاص. والله الرزاق ذو القوة المتين[١٢٢٣]. والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم.

(١٢٢٧) « ندر الشىء ندورا من باب قعد والاسم النُّدْرة بفتح النون، والضم لغة، ويقال لا يكون ذلك إلا نادرا وفى النُّدْرة أى فيما بين الأيام » (من المصباح). هذا ولم ترد فى المعجمات كلمة « النُّدَارة » التى استخدمها ابن خلدون.

١٥ — فصل فى أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة

قد قدمنا فى الفصل قبله أن التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والأرباح. ولا بد فى ذلك من المكايسة[٩٢٥] والمماحكة[١٢١٨] والتحذلق وممارسة الخصومات واللجاج، وهى عوارض هذه الحرفة. وهذه الأوصاف نقص من الزكاء[٢٧٩] (١٢٢٨) والمروءة وتجرح فيها؛ لأن الأفعال لا بد من عود آثارها على النفس، فأفعال الخير تعود بآثار الخير والزكاء[١٢٢٨]، وأفعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك، فتتمكن وترسخ إن سبقت وتكررت، وتنقص خلال الخير إن تأخرت عنها، بما ينطبع من آثارها المذمومة فى النفس، شأن الملكات الناشئة عن الأفعال.

وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار فى أطوارهم. فمن كان منهم سافل الطور مخالفاً لأشرار الباعة أهل الغش والخلابة[١١٤٧] والفجور فى الأيمان إقراراً وإنكاراً، كانت رداءة تلك الخلق عنده أشد، وغلبت عليه السفسفة، وبعد عن المروءة واكتسابها بالجملة. وإلا فلابد له من تأثير المكايسة[٩٢٥] والمماحكة[١٢١٨] فى مروءته، وفقدان ذلك منهم فى الجملة. ووجود الصنف الثانى منهم الذى قدمناه فى الفصل قبله أنهم يَدَّرِعون[١٢١٩] بالجاه ويُعَوَّض لهم من مباشرة ذلك، فهم نادر وأقل من النادر. وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة بنوع غريب أو ورثه عن أحد من أهل بيته، فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهوراً وشهرة بين أهل عصره، فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه، ويدفعه إلى من يقوم له به من وكلائه وحشمه، ويسهل له الحكام

(١٢٢٨) فى جميع النسخ «الذكاء» وهو تحريف كما لا يخفى، انظر معنى الزكاء بالزاى فى تعليق ٢٧٩.

النصفة[٥٧٣] فى حقوقهم بما يؤنسونه من بره و إتحافه فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر ، فتكون مروءتهم أرسخ وأبعد عن تلك المحاجاة ، إلا ما يسرى من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب ، فأنهم يضطرون إلى مشارفة أحوال أولئك الوكلاء ووفاقهم أو خلافهم فيما يأتون أو يذرون من ذلك؛ إلا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره . « والله خلقكم وما تعملون[١٠٩٦] » .

١٦ — فصل فى أن الصنائع لابد لها من المعلم (١٢٢٨ب)

اعلم أن الصناعة هى ملكة فى أمر عملىّ فكرى، وبكونه عمليا هو جسمانى محسوس. والأحوال الجسمانية المحسوسة فنقلها (١٢٢٨ح) بالمباشرة أوعب لها وأكمل. لأن المباشرة فى الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة ، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى ، حتى ترسخ صورته ؛ وعلى نسبة الأصل تكون الملكة . ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم؛ فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر . وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم فى الصناعة وحصول ملكته .

ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركب ، والبسيط هو الذى يختص بالضروريات ، والمركب هو الذى يكون للكماليات . والمتقدم منها فى التعليم هو البسيط لبساطته أولا ولأنه مختص بالضرورى الذى تتوفر[٦٠] الدواعى على نقله ؛ فيكون سابقا فى التعليم و يكون تعليمه لذلك ناقصا . ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئاً فشيئاً على التدريج حتى تكمل . ولا يحصل ذلك دفعة و إنما يحصل فى أزمان وأجيال ؛ إذ خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة لا سيما فى الأمور الصناعية ، فلا بد له إذن من زمان . ولهذا تجد الصنائع فى الأمصار الصغيرة ناقصة ، ولا يوجد منها إلا

(١٢٢٨ب) فى « ل » و « م » لا بد لها من العلم ، وهو تحريف .

(١٢٢٨ح) الأصح حذف الفاء ، وكثيرا ما يزيدها ابن خلدون فى مثل هذا التركيب.

البسيط . فإذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع ، خرجت من القوة إلى الفعل (١٢٢٨ د) .

وتنقسم الصنائع أيضاً : إلى ما يختص بأمر المعاش ضروريا كان أو غير ضروري ؛ وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع؛ والسياسة(١٢٢٩). ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها ؛ ومن الثاني الوِراقة ، وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد ، والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك ؛ ومن الثالث الجندية وأمثالها . والله أعلم .

١٧ — فصل في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته

والسبب في ذلك أن الناس ما لم يُستوف العمران الحضري وتتمدن المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش ، وهو تحصيل الأقوات من الحنطة وغيرها . فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه ، صُرِف الزائد حينئذ إلى الكمالات من المعاش . ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات ، والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية ، فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع ، وهي متأخرة عن الضروري. وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ ، واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر ٦٠ دواعي الترف والثروة. وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع إلا البسيط ، خاصة المستعمل في الضروريات من نجار

(١٢٢٨ د) ورد في النسخة الخطية التي أشرنا إليها في تعليق ٩٠٠ بعد هذه العبارة جملة « والله أعلم » وختم بها الفصل . فالفقرة التالية تزيد بها النسخ المتداولة على هذه النسخة الخطية .

(١٢٢٩) سقط هنا كلمتان ، وتقدير العبارة بعد وضعهما : « وإلى ما يختص بالسياسة » لأنه هنا بصدد صنف ثالث كما سيبينه في الجملة التالية .

أو حداد أو خياط أو حائك أوجزار . وإذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه[١٢٣٠] كاملة ولا مستجادة ، وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة ، إذ هى كلها وسائل إلى غيرها وليست مقصودة لذاتها .

وإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكمالات ، كان من جملتها التأنق فى الصنائع واستجادتها ، فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخراز[١٢٣١] وصائغ وأمثال ذلك . وقد تنتهى هذه الأصناف إذا استبحر ١١٣١ب العمران إلى أن يوجد منها كثير من الكمالات ، والتأنق فيها فى الغاية ، وتكون من وجوه المعاش فى المصر لمنتحلها ، بل تكون فائدتها من أعظم فوائد الأعمال ، لما يدعو إليه الترف فى المدينة مثل الدهّان[١٢٣٢] والصفّار[١٢٣٣] والحمّامى[١٢٣٤] والطباخ والسفّاح[١٢٣٥] والهرّاس[١٢٣٦] ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ، ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها ، فإن هذه الصناعة إنما يدعو إليها الترف فى المدينة من الاشتغال بالأمور الفكرية

(١٢٣٠) أى فى العمران البدوى .

(١٢٣١) الخرّاز صانع الأحذية ، والخرازة حرفته . خرز الخفّ يخرزه بضم الزاى وكسرها (من القاموس) .

(١٢٣٢) الدهّان الذى يبيع الدهن ويشتغل بصناعته . ولعله يقصد الذى يدهن حوائط البيوت .

(١٢٣٣) الصفّار الذى يشتغل بصناعة الصُّفْر وهو صنف من النحاس .

(١٢٣٤) الحمّامى الذى يتعهد الحمامات ويزاول صناعتها .

(١٢٣٥) هكذا فى جميع النسخ المتداولة . وفى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ « السفاج » . وكلتا الكلمتين لا معنى لها هنا . ويظهر أن الكلمة محرفة عن « الصباغ » وهو الذى يصبغ الثياب ، أو عن « السقاء » وهو الذى ينقل الماء إلى المنازل .

(١٢٣٦) « الهَرْس الدق العنيف ، والهرّاس متخذه ، وهرس الهراس الهريسة من باب قتل دقها ، والمهراس الهاوون وحجر مستطيل ينقر ويدق فيه ويتوضأ فيه ، وقد استعير للخشبة التى يدق فيها الحب ، فقيل لها مهراس على التشبيه بالمهراس من الحجر أو الصفر الذى يهرس فيه الحبوب وغيرها (من القاموس والمصباح) .

وأمثال ذلك . وقد تخرج عن الحد إذا كان العمران خارجاً عن الحد ، كما بلغنا عن أهل مصر[١١٢٥] أن فيهم من يعلم الطيور العجم والحُمُرَ الإنسية ، ويتخيل أشياء من العجائب بإيهام قلب الأعيان، وتعليم الحُداء[١٢٣٧] والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ، ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة ، وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب ، لأن عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة . أدام الله عمرانها بالمسلمين .

١٨ — فصل في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران وألوان[١٢٣٨] والعوائد إنما ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الأجيال ؛ وإذا استحكمت الصبغة عسر نزعها . ولهذا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت[١٢٣١ب] في الحضارة لمّا تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثة العمران ، ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة . وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الأحقاب وتداول الأحوال وتكررها ؛ وهذه لم تبلغ الغاية بعد .

وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد : فإنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها ، كالمباني

(١٢٣٧) أصل الحدْو الغناء للابل في سوقها ، يقال حدوت الإبل أحدوها حَدْوا وحُداءً بالضم حثثتها على السير بالحداء مثل غراب ، وهو الغناء . وحدوته على كذا بعثته عليه (المصباح والصحاح) .

(١٢٣٨) هكذا في النسخة الخطية المشار إليها في تعليق ٩٠٠ . وقد وردت هذه الكلمة محرفة إلى « الأوان » في « ل » و « م » ، وإلى « الوأم » في « دار الكتاب اللبناني » .

والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنصيد الفرش في القصور، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء، وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجمع المواعين، وإقامة الولائم والأعراس، وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده. فنجدهم أقْوَمَ عليها وأبصر بها، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم. فهم على حصة موفورة من ذلك، وحظ متميز بين جميع الأمصار، وإن كان عمرانها قد تناقص، والكثير منه لا يساوى عمران غيرها من بلاد العُدْوَة. وما ذاك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية، وما قبلها من دولة القوط، وما بعدها من دولة الطوائف إلى هلم جرا. فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر، إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضاً، لطول آماد الدول فيها، فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع أصنافها على الاستجادة والتنميق، وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران، لا تفارقه إلى أن ينتقض بالكلية، حال الصبغ إذا رسخ في الثوب.

وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين[٩٣٦] من بعدهم، وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال، وإن كان ذلك دون الأندلس. إلا أنه متضاعف برسوم منها تنقل إليها من مصر لقرب المسافة بينهما، وتردد المسافرين من قطرها إلى قطر مصر في كل سنة. وربما سكن أهلها هناك عصوراً، فينقلون من عوائد ترفهم ومحكم صنائعهم مايقع لديهم موقع الاستحسان. فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر لما ذكرناه ومن أحوال الأندلس لما[٥٨١] أن أكثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة. ورسخ فيها من ذلك أحوال، وإن كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد، إلا أن الصبغة إذا استحكمت فقليلا ماتحول إلا بزوال محلها.

وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثراً باقياً من ذلك؛ وإن كانت هذه كلها اليوم خراباً أو في حكم الخراب. ولا يتفطن لها إلا البصير من

الناس فيجد من هذه الصنائع آثاراً تدله على ما كان بها ؛ كأثر الخط الممحو في الكتاب . والله الخلاق العليم .

١٩ — فصل فى أن الصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبها

والسبب فى ذلك ظاهر، وهو أن الإنسان لا يسمح بعمله أن يقع مجّاناً لأنه كسبه ومنه معاشه ، إذ لا فائدة له فى جميع عمره فى شىء مما سواه ؛ فلا يصرفه إلا فيما له قيمة فى مصره ليعود عليه بالنفع . وإن كانت الصناعة مطلوبة وتوجه إليها النفّاق[٤٤] كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التى تنفق[٤٤] سوقها وتجلب للبيع ، فتجتهد الناس فى المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم . وإذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تَنْفُق[٤٤] سوقُها، ولا يوجه قصد إلى تعلمها ، فاختصت بالترك وفقدت للاهمال . ولهذا يقال عن علىّ رضى الله عنه : « قيمة كل امرىء ما يحسن » ، بمعنى أن صناعته هى قيمته أى قيمة عمله الذى هو معاشه . وأيضاً فهنا سر آخر وهو أن الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة ، فهى التى تُنفِق[٤٤] سوقَها وتوجِّهُ الطلبات إليها ، وما لم تطلبه الدولة وإنما يطلبها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها ؛ لأن الدولة هى السوق[١٣٨ب] الأعظم . وفيها نَفَاق[٤٤] كل شىء ، والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة ، فما نفق منها كان أكثر ياً ضرورة . والسوقة وإن طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ، ولا سوقهم بنافقة[٤٤] والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء .

٢٠ — فصل فى أن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع

وذلك لما بينا أن الصنائع إنما تستجاد إذا احتيج إليها وكثر طالبها ؛ وإذا ضعفت أحوال المصر وأخذ فى الهَرَم بانتقاض عمرانه وقلة ساكنه تناقص فيه

الترف ، ورجعوا إلى الاقتصار على الضروري من أحوالهم ، فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف ، لأن صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه ، فيفر إلى غيرها أو يموت ، ولا يكون خلف منه ، فيذهب رسم تلك الصنائع جملة ، كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من الصنائع لحاجات الترف . ولا تزال الصناعات في التناقص مازال المصر في التناقص إلى أن تضمحل . والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى .

٢١ — فصل في أن العرب[٣٥٩] أبعد الناس عن الصنائع

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري ، وما يدعو إليه من الصنائع وغيرها . والعجم من أهل المشرق وأمم النصرانية عدْوَة البحر الرومي[١٧٣] أقوَمُ الناس عليها لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه ؛ حتى إن الإبل التي أعانت العرب على التوحش في القفر والإعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة ومفقودة مراعيها والرمال المهيئة لنتاجها[٣٥٢] . ولهذا تجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب إليه من قطر آخر . وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيهم الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم .

وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة منذ أحقاب من السنين . ويشهد لك بذلك قلة الأمصار بقطرهم كما قدمناه . فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة ، إلا ما كان من صناعة الصوف من نسجه ، والجلد في خرزه[١٢٣١] ودبغه . فأنهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها ، وكون هذين أغلب السلع في قطرهم لما هم عليه من حال البداوة .

وأما المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الأمم الأقدمين من الفرس

والنبط والقبط و بنى اسرائيل و يونان والروم أحقاباً متطاولة . فرسخت فيهم أحوال الحضارة ومن جملتها الصنائع كما قدمناه ، فلم يمح رسمها .

وأما اليمن والبحرين وعُمان والجزيرة ، وإن ملكه العرب ، إلا أنهم تداولوا ملكه آلافا من السنين فى أمم كثيرين منهم ، واختطوا أمصاره ومدنه ، و بلغوا الغاية من الحضارة والترف ، مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والأذواء ، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت ، فلم تبل ببلى الدولة كما قدمناه ، فبقيت مستجدة حتى الآن ، واختصت بذلك الوطن كصناعة الوَشْى (١٢٣٩) والعَصْب (١٢٤٠) ومايستجاد من حوك الثياب والحرير فيها . والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

٢٢ — فصل فيمن حصلت له ملكة فى صناعة

فقل ١٢٣٨ — أن يجيد بعدها ملكة فى أخرى

ومثال ذلك الخياط إذا أجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت فى نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة أو البناء ، إلا أن تكون الأولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها . والسبب فى ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدحم دفعة . ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها . فاذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة ، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف . وهذا بيِّن يشهد له الوجود . فقل أن تجد صاحب صناعة يُحكمها ثم يحكم من بعدها أخرى و يكون فيهما معاً على رتبة واحدة من الإجادة . حتى أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة . ومن حصل منهم على

(١٢٣٩) « الوَشْى نقش الثوب » (القاموس) .

(١٢٤٠) العَصْب بُرْد من برود اليمن على نسج خاص (من الصحاح)

ملكة علم من العلوم وأجادها فى الغاية فقل أن يجيد ملكة علم آخر على نسبته ؛ بل يكون مقصراً فيه إن طلبه ، إلا فى الأقل النادر من الأحوال . ومبنى سببه على ما ذكرناه من الاستعداد وتلونه بلون الملكة الحاصلة فى النفس . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لا رب سواه .

٢٣ — فصل فى الإشارة إلى أمهات الصنائع

اعلم أن الصنائع فى النوع الإنسانى كثيرة لكثرة الأعمال المتداولة فى العمران ، فهى بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد . إلا أن منها ما هو ضرورى فى العمران أو شريف بالموضوع فنخصها بالذكر ونترك ما سواها . فأما الضرورى فالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة . وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب . فأما التوليد فانها ضرورية فى العمران وعامة البلوى إذ بها تحصل حياة المولود وتتم غالباً ، وموضوعها مع ذلك المولودون وأمهاتهم . وأما الطب فهو حفظ الصحة للانسان ودفع المرض عنه ، ويتفرع عن علم الطبيعة ، وموضوعه مع ذلك بدن الإنسان . وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهى حافظة على الإنسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان ، ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب ، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم فى الصحف ، ورافعة رتب الوجود للمعانى . وأما الغناء فهو نسب الأصوات ومظهر جمالها للأسماع . وكل هذه الصنائع الثلاث[١٢٤١] داع إلى مخالطة الملوك الأعاظم فى خلواتهم ومجالس أنسهم ، فلها بذلك شرف ليس لغيرها . وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة فى الغالب . وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواعى . والله أعلم بالصواب .

(١٢٤١) يقصد الصنائع الثلاث الأخيرة وهى : الطب ويدخل فيه التوليد ؛ والكتابة وتتبعها الوراقة ؛ والغناء .

٢٤ — فصل فى صناعة الفلاحة

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها وازدراعها ، وعلاج نباتها ، وتعهده بالسقى والتنمية إلى بلوغ غايته ، ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه ، وإحكام الأعمال لذلك ، وتحصيل أسبابه ودواعيه . وهى أقدم الصنائع لما أنها مُحَصِّلة للقوت المكمل لحياة الإنسان غالباً ، إذ يمكن وجوده من دون جميع الأشياء إلا من دون القوت . ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدو . وإذ قدمنا أنه أقدم من الحضر وسابق عليه (١٢٤٢) ، فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضر ولا يعرفونها ، لأن أحوالهم كلها ثانية على البداوة ، فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها . والله سبحانه وتعالى مقيم العباد فيما أراد .

٢٥ — فصل فى صناعة البناء

هذه الصناعة أول صنائع العمران الحضرى وأقدمها ، وهى معرفة العمل فى اتخاذ البيوت والمنازل للسكن (١٢٤٢ ب) والمأوى للأبدان فى المدن . وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر فى عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد ، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها . والبشر مختلف فى هذه الجبلة الفكرية ، فمنهم المتعدلون فيها يتخذون ذلك باعتدال كأهالى الثانى والثالث والرابع والخامس والسادس (١٢٤٣) . وأما أهل البدو فيبعدون عن اتخاذ ذلك لقصور أفكارهم عن إدراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج .

(١٢٤٢) تقدم ذلك فى الفصل الثالث من الباب الثانى صفحتى ٤١٣ ، ٤١٤ .

(١٢٤٢ ب) فى « ن » : للسكن .

(١٢٤٣) يقصد أهالى الأقاليم الثانى إلى السادس ، وهى التى تقدم ذكرها فى المقدمة الثانية من الباب الأول (انظر صفحات ٢٩٦ — ٣٢٧) .

ثم المعتدلون المتخذون للمأوى قد يتكاثرون فى البسيط الواحد ، بحيث يتناكرون ولا يتعارفون ، فيخشون طروق بعضهم بعضاً ، فيحتاجون إلى حفظ مجتمعهم بإدارة ماء أو أسوار تحوطهم ، و يصير جميعاً مدينة واحدة ومصراً واحداً ، و يحوطهم الحكام من داخل يدفع بعضهم عن بعض ؛ وقد يحتاجون إلى الانتصاف و يتخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت أيديهم مثل الملوك ومن فى معناهم من الأمراء وكبار القبائل فى المدن ، كل مدينة على ما يتعارفون و يصطلحون عليه ، و يتناسب مزاج هوائهم واختلاف أحوالهم فى الغنى والفقر .

وكذا حال أهل المدينة الواحدة ، فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة وُلْدِه وحشمه وعياله وتابعه ، ويؤسس جدرانها بالحجارة و يلحم بينها بالكِلْس (١٢٤٤) و يعالى عليها بالأصبغة والجِص ، و يبالغ فى ذلك بالتنجيد ٣٥٧ والتنميق إظهاراً للبسطة بالعناية فى شأن المأوى . و يهيىء مع ذلك الأسراب والمطامير للاختزان لأقواته ، والاصطبلات لربط مُقْرَبَاته (١٢٤٥) إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن فى معناهم . ومنهم من يبنى الدويرة والبُيَيْت (١٢٤٦) لنفسه وسكنه وولده لا يبتغى ما وراء ذلك ، لقصور حاله عنه واقتصاره على السكن الطبيعى للبشر . و بين ذلك مراتب غير منحصرة .

وقد يحتاج لهذه الصناعة أيضاً عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدنَ العظيمة

(١٢٤٤) الكِلس بالكسر الصاروج وهو النُّورة وأخلاطها . وقد كانت الحائط طليتها بالكلس . ويستخدم كذلك ملاطا .

(١٢٤٥) « المُقْرَبة الفرس التى تُدْنَى وتُقْرَب وتكرم ولاتترك وهو مقرب ، أو يُفْعل ذلك بالإناث لئلا يقرعها فحل لئيم ، ومن الإبل التى حزمت للركوب » (القاموس) .

(١٢٤٦) وردت هذه الكلمة محرفة فى النسخ المتداولة . ففى « ل » و « م » و « ن » : « البيوت » . وفى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ : « البيويت » .

والهيا كل المرتفعة ، و يبالغون فى اتقان الأوضاع وعلو الأجرام مع الإحكام لتبلغ الصناعة مبالغها . وهذه الصناعة هى التى تحصل الدواعى لذلك .

وأكثر ما تكون هذه الصناعة فى الأقاليم المعتدلة من الرابع[١٢٤٣] وماحواليه، إذ الأقاليم المنحرفة لا بناء فيها ، و إنما يتخذون البيوت حظائر من القصب والطين [و يأوون إلى الكهوف والغيران][(١٢٤٦ ب)] .

وأهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون : فمنهم البصير الماهر ؛ ومنهم القاصر . ثم هى تتنوع أنواعا كثيرة . فمنها البناء بالحجارة المنجدّة[٣٥٧] يقام بها الجدران ملصقاً بعضها إلى بعض بالطين والكلس[١٢٤٤] الذى يعقد معها و يلتحم كأنها جسم واحد . ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذ لها لوحان من الخشب مقدران طولا وعرضاً باختلاف العادات فى التقدير ، وأوسطه أربع أذرع ، فى ذراعين ، فينصبان على أساس ، وقد بوعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء فى عرض الأساس ، و يوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر ، و يسد الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحين آخرين صغيرين ، ثم يوضع فيه التراب مخالطا بالكلس[١٢٤٤] ، و يركز بالمراكز المعدة حتى ينعم ركزه وتختلط أجزاؤه ، ثم يزاد التراب ثانياً وثالثاً إلى أن يمتلىء ذلك الخلاء بين اللوحين ، وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسما واحداً . ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة ، و يركز كذلك إلى أن يتم و ينظم الألواح كلها سطراً من فوق سطر إلى أن ينتظم الحائط كله ملتحما كأنه قطعة واحدة . و يسمى الطابية وصانعه الطوّاب . ومن صنائع البناء أيضاً أن تُحلّل الحيطان بالكلس[١٢٤٤] بعد أن يحل بالماء و يخمر أسبوعا أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن إفراط

(١٢٤٦ ب) هكذا فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . وقد حرفت هذه الجملة فى النسخ المتداولة إلى هذه الصيغة الغريبة : « وإنما يوجد فى الأقاليم المعتدلة له » .

النارية المفسدة للإلحام ، فإذا تم له ما يرضاه من ذلك علاه من فوق الحائط ، وذلك إلى أن يلتحم .

ومن صنائع البناء عمل السقف بأن يمد الخشب المحكمة النجارة أو الساذجة على حائطى البيت ، ومن فوقها الألواح كذلك موصلة بالدساتر (١٢٤٧) ، ويصب عليها التراب والكلس ١٢٤٤ ، ويبسط بالمراكز حتى تتداخل أجزاؤها وتلتحم ويعالى عليها الكلس كما يعالى على الحائط .

ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التنميق والتزيين كما يُصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجص يخمر بالماء ثم يرجع جسداً وفيه بقية البلل ، فيشكل على التناسب تخريماً بمثاقب الحديد إلى أن يبقى له رونق ورُواء ، وربما عولى على الحيطان أيضاً بقطع الرخام والآجر والخزف أو بالصدف أو السَّبَج (١٢٤٨) ، يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة ، وتوضع فى الكلس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم يبدو به الحائط للعيان كأنه قطع الرياض المنمنمة (١٢٤٨ب) ، إلى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسيح الماء بعد أن تعد فى البيوت قصاع الرخام القوراء ٨٤٦ المحكمة الخرط بالفوهات فى وسطها لنبع الماء الجارى إلى الصهريج ، يجلب إليه من خارج القنوات المفضية إلى البيوت . وأمثال ذلك من أنواع البناء .

وتختلف الصناع فى جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر ؛ ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثرون . وربما يرجع الحكام إلى نظر هؤلاء فيما هم أبصر به

(١٢٤٧) هكذا فى بعض النسخ ، وفى نسخ أخرى بالدساتر . وكلتا الكلمتين محرفة على ما يظهر لى . ولعل صوابها « بالدسار » وهو واحد « الدسر » وهى المسامير ؛ قال تعالى : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » (آية ١٢ من سورة القمر وهى سورة ٥٤) . أو لعل « الدساتر » جمع لكلمة « الدسر » ، فتكون جمعا للجمع .

(١٢٤٨) السَّبَج خرز معروف الواحدة سبجة مثل قصب وقصبة » (المصباح) . وفى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ : « الرَّبَج » وهو الدرهم الصغير الخفيف (من القاموس) . وفى « ن » : « بالسيج » ، وهى تحريف .

(١٢٤٨ب) من تنمنم إذا زخرفه وزينه

من أحوال البناء . وذلك أن الناس فى المـــدن لـكثرة الازدحام والعمران يتشاحون (١٢٤٨ حـ) حتى فى الفضاء والهواء للأعلى والأسفل ، ومن الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر فى الحيطان فيمنع جاره من ذلك ، إلا ما كان له فيه حق ، ويختلفون أيضاً فى استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجـارية والفضلات المسربة فى القنوات ، وربما يدعى بعضهم حق بعض فى حائطه أو علوه أو قنانه لتضايق الجوار ، أو يدعى بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه ، ويحتاج إلى الحـكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه ، أو يحتاج إلى قسمة دار أو عَرْصة (١٢٤٩) بين شريكين ، بحيث لا يقع معها فساد فى الدار ولا إهمال لمنفعتها وأمثال ذلك ، ويخفى جميع ذلك إلا على أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله ، المستدلين عليها بالمعاقد والقمط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة أوضاعها ومنافعها وتسريب المياه فى القنوات مجلوبة ومرفوعة بحيث لا تضر بما مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك ؛ فلهم بهذا كله البصر والخبرة التى ليست لغيرهم . وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور فى الأجيال باعتبار الدول وقوتها . فإنا قدمنا أن الصنائع وكالها انما هو بكمال الحضارة ، وكثرتها بكثرة الطالب لها (١٢٤٩ب) فلذلك عندما تـكون الدولة بدوية فى أول أمرها تفتقر فى أمر البناء إلى غير قطرها ، كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام ، فبعث إلى ملك الروم بالقسطنطينية فى الفَـعَلَة المهرة فى البناء فبعث إليه منهم من حصّل له غرضه من تلك المساجد .

(١٢٤٨ حـ) تشاحّ القوم بالتضعيف إذا شح بعضهم على بعض من الشح وهو البخل (من المصباح) .

(١٢٤٩) العرْصة ساحة الدار وهى القطعة الواسعة التى ليس فيها بناء ، أو كل بقعة ليس فيها بناء ، والجمع عِراص وعَرْصات .

(١٢٤٩ب) انظر الفصلين ١٨ ، ١٩ من هذا الباب صفحات ٩٢٦ — ٩٢٨ .

وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه بأخذ الارتفاع ، وأمثال ذلك ، فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله ، وكذلك فى جر الأثقال بالهندام[١٠٩١] ، فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة تعجز قُدَرُ الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط ، فيُتَحيل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بإدخاله فى المعالق[٩٤] من أثقاب مقدرة على نسب هندسية تصير الثقيل عند معاناة الرفع خفيفا فيتم المراد من ذلك بغير كلفة ، وهذا إنما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة بين البشر . وبمثلها كان بناء الهيا كل الماثلة لهذا العهد التى يحسب الناس أنها من بناء الجاهلية وأن أبدانهم كانت على نسبتها فى العظم الجسمانى وليس كذلك ، وإنما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه (١٢٤٩ حـ) فتفهم ذلك ، والله يخلق مايشاء سبحانه .

٢٦ — فصل فى صناعة النّجارة

هذه الصناعة من ضروريات العمران ، ومادتها الخشب . وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل للآدمى فى كل مُكَوَّنٍ من المكونات منافع تكمل بها ضروراته أو حاجاته ٤٣٩ب . وكان منها الشجر فإن له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل أحد . ومن منافعها اتخاذها خشباً إذا يبست . وأول منافعه أن يكون وقوداً للنيران فى معاشهم وعصياً للاتكاء والذود وغيرها من ضرورياتهم ، ودعائم لما يخشى ميله من أثقالهم . ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر . فأما أهل البدو فيتخذون منها العُمُد والأوتاد لخيامهم ، والحُدوج (١٢٥٠) لظعائنهم ٨٣٨ ، والرماح والقِسِىّ والسهام لسلاحهم . وأما أهل الحضر فالسقف لبيوتهم والاغلاقُ (١٢٥١) لأبوابهم والكراسى لجلوسهم . وكل واحدة من هذه فالخشبة مادة لها ، ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة .

(١٢٤٩ حـ) انظر صفحتى ٨٣٣ ، ٨٣٤ .

(١٢٥٠) الحدْج مركب للنساء كالمحَفَّة ، وجمعه حُدوج وأحداج » (القاموس)

(١٢٥١) الغَلَق والمغلاق هو ما يغلق به الباب وجمعه أغلاق (من القاموس) .

والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هى النجارة على اختلاف رتبها . فيحتاج صاحبها إلى تفصيل الخشب أولا إما بخشب أصغر منه أو ألواح . ثم يركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة . وهو فى كل ذلك يحاول بصنعته إعداد تلك الفصائل بالانتظام إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص . والقائم على هذه الصناعة هو النجار . وهو ضرورى فى العمران . ثم إذا عظمت الحضارة ، وجاء الترف ، وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسى أو ماعون ، حدث التأنق فى صناعة ذلك واستجادته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضرورى فى شىء ، مثل التخطيط فى الأبواب والكراسى ، ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط يُحكم بريها وتشكيلها ، ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدساتر [١٢٤٧] فتبدو لرأى العين ملتحمة ، وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب . يصْنَعُ هذا فى كل شىء يتخذ من الخشب فيجىء آنَقَ ما يكون . وكذلك فى جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أى نوع كان .

وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة فى إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدُّسُر [١٢٤٧] ، وهى أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه فى الماء بقوادمه وكَلْكَله [١٢٥٢] ، ليكون ذلك الشكل أعون لها فى مصادمة الماء ، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التى للسمك تحريك الرياح ، وربما أعينت بحركة المقاذيف كما فى الأساطيل .

وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة فى جميع أصنافها ؛ لأن إخراج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الإحكام محتاج إلى معرفة التناسب فى المقادير ، إما عموماً أو خصوصاً . وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس .

(١٢٥٢) الكلكل الصدر .

ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة فى هذه الصناعة ؛ فكان أوقليدس صاحب كتاب الأصول فى الهندسة نجاراً وبها كان يعرف ، وكذلك أبلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم . وفيما يقال : إن معلم هذه الصناعة فى الخليقة هو نوح عليه السلام ، وبها أنشأ سفينة النجاة التى كانت بها معجزته عند الطوفان . وهذا الخبر وإن كان ممكناً أعنى كونه نجاراً ، إلا أن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعد الآماد . وإنما معناه والله أعلم الإشارة إلى قدم النجارة ؛ لأنه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام ، فجعل كأنه أول من تعلمها . فتفهم أسرار الصنائع فى الخليقة . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

٢٧ — فصل فى صناعة الحياكة والخياطة

هاتان الصناعتان ضروريتان فى العمران لما يحتاج إليه البشر من الرَّفْه[٥٠٧] . فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء فى الطول وإلحاماً(١٢٥٢ ب) فى العرض ، [وإحكاما][١٢٥٣] لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة : فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال[١٢٥٤] ؛ ومنها الثياب من القطن والكتان للباس . والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد ، تفصل أولا بالمِقراضِ[١٢٥٥] قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا أو تنبيتاً أو تفسحاً على حسب نوع الصناعة .

(١٢٥٢ب) أسدى الثوب نسج سداه وهو ما مُدَّ منه ، وألحمه نسج لحمته وهى الخيوط المؤلفة لعرضه .

(١٢٥٣) هذه الكلمة ساقطة من جميع النسخ المتداولة ، وقد وجدناها مثبتة فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . وبدونها لا يستقيم المعنى .

(١٢٥٤) اشتمل بالثوب أداره على جسده كله حتى لا تخرج منه يده .

(١٢٥٥) المقراض المقص .

وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضرى ؛ لما أن أهل البدو يستغنون عنها ، وإنما يشتملون[١٢٥٤] الأثواب اشتمالا ؛ وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها . وتفهم هذا فى سر تحريم المخيط فى الحج لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها والرجوع إلى الله تعالى كما خلقنا أول مرة ، حتى لا يعلق العبد قلبه بشىء من عوائد ترفه ، لا طِيباً ولا نساء ولا مخيطاً ولا خفاً ، ولا يعرض لصيد ولا لشىء من عوائده التى تلونت بها نفسه وخلقه ، مع أنه يفقدها بالموت ضرورة ، وإنما يجىء كأنه وارد إلى المحشر ضارعاً بقلبه مخلصاً لربه ، وكان جزاؤه إن تم له إخلاصه فى ذلك أن يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه . سبحانك ما أرفقك بعبادك وأرحمك بهم فى طلب هدايتهم إليك .

وهاتان الصنعتان قديمتان فى الخليقة لما أن الدفء ضرورى للبشر فى العمران المعتدل . وأما المنحرف إلى الحر فلا يحتاج أهله إلى دفء . ولهذا يبلغنا عن أهل الإقليم الأول[١٢٤٣] من السودان أنهم عراة فى الغالب . ولقدم هذه الصنائع ينسبها العامة إلى إدريس عليه السلام ، وهو أقدم الأنبياء . وربما ينسبونها إلى هرمس[(١٢٥٦)] . وقد يقال : إن هرمس هو أدريس . والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم .

٢٨ — فصل فى صناعة التوليد

وهى صناعة يعرف بها العمل فى استخراج المولود الآدمى من بطن أمه من

(١٢٥٦) هيرمس Hermès (هكذا اسمه عند اليونان ، ويسميه الرومان مركور Mercure ، ويسميه العرب عطارد) من آلهة اليونان والرومان . يعتقدون أنه ابن كبير آلهتهم زوس (جوبيتير). وهو رسول زوس ووحيه الأمين إلى الآلهة والخلق . وهو كذلك إله الخطابة والبيان والتجارة . . . ووظائف أخرى . (انظر كتابنا فى غرائب النظم والتقاليد والعادات ، الجزء الأول ، صفحة ٤٤) . ولعل ابن خلدون يقصد شخصا آخر .

الرفق فى إخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك ، ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما نذكر . وهى مختصة بالنساء فى غالب الأمر ، لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض . وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة . استعير فيها معنى الإعطاء والقبول ، كأن النُّفَسَاء(١٢٥٦ب) تعطيها الجنين وكأنها تقبله .

وذلك أن الجنين إذا استكمل خلقه فى الرحم وأطوارَه وبلغ إلى غايته والمدة التى قدرالله لمكثه ، وهى تسعة أشهر فى الغالب ، فيطلب الخروج بما جعل الله فى المولود من النزوع لذلك ، ويضيق عليه المنفذ فيعسر ، وربما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط ، وربما تَقَطَّع بعض ما كان فى الأغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم . وهذه كلها آلام يشتد لها الوجع وهو معنى الطَّلْق ، فتكون القابلة معينة فى ذلك بعض الشىء بغمز الظهر والوركين وما يحاذى الرحم من الأسافل ، تساوق بذلك فعل الدافعة فى إخراج الجنين ، وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها ، وعلى ما تهتدى إلى معرفة عسره . ثم إذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصلة من سرته بمعاه ، وتلك الوصلة عضو فضلى لتغذية المولود خاصة ، فتقطعها القابلة من حيث لا تتعدى مكان الفضلة ولا تضر بمعاه ولا برحم أمه ، ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكى أو بما تراه من وجوه الاندمال . ثم إن الجنين عند خروجه فى ذلك المنفذ الضيق ، وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانثناء ، فربما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها لقرب التكوين ورطوبة المواد ، فتتناوله القابلة بالغمز والإصلاح ، حتى يرجع كل عضو إلى شكله الطبيعى ووضعه المقدر له ، ويرتد خلقه سوياً . ثم بعد ذلك تراجع النُّفَسَاء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين ، لأنها ربما تتأخر عن خروجه قليلاً ، ويخشى عند ذلك أن تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الأغشية ، وهى فضلات فتعفن ويسرى عفنها إلى الرحم فيقع الهلاك ،

(١٢٥٦ ب) النُّفَسَاء المرأة فى حالة النفاس بعد الولادة .

فتحاذر القابلة هذا وتحاول فى إعانة الدفع إلى أن تخرج تلك الأغشية إن كانت قد تأخرت ، ثم ترجع إلى المولود فتُمَرِّخ[١٢٥٧] أعضاءه بالأدهان والذَّرُورات[١٢٥٨] القابضة لتشده، وتجفف رطوبات الرحم، وتُحَنِّكه[١٢٥٩] لرفع لهاته وتُسْعِطه[١٢٦٠] لاستفراغ نُطُوف[١٢٦١] دماغه وتغرغره باللَّعُوق[١٢٦٢] لدفع السُّدَد[١٢٦٣] من معاه وتجويفها عن الالتصاق . ثم تداوى النُّفَساء١٢٥٦ب بعد ذلك من الوهن الذى أصابها بالطلق ، وما لحق رحمها من ألم الانفصال ، إذ المولود إن يكن عضواً طبيعياً فحالة التكوين فى الرحم صيرته بالالتحام كالعضو المتصل ، فلذلك كان فى انفصاله ألم يقرب من ألم القطع. وتداوى مع ذلك مايلحق الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط فى الخروج . وهذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها . وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء فى بدنه إلى حين الفِصال[١٢٦٤] نجدهن أبصر بها من الطبيب الماهر . وما ذاك إلا لأن بدن الإنسان فى تلك الحالة إنما هو بدن إنسانى بالقوة فقط ، فإذا جاوز

(١٢٥٧) « مرخ الجسم دهنه بالمروخ ، وهو ما يُمرَّخ به البدن من دهن وغيره ، كمرَّخه » (القاموس) .

(١٢٥٨) جمع ذَرور وهو ما يُذر فى العين ونحوها من مساحيق (من القاموس) ، والذرور كذلك نوع خاص من الطيب ، قال الزمخشرى هو فتات قصب الطيب ، وهو قصب يؤتى به من الهند (من المصباح) .

(١٢٥٩) « حَنَّكه تحنيكا دلك حنكه » (القاموس) .

(١٢٦٠) « سعطه الدواءَ وأسعطه إياه أدخله فى أنفه ، والسَّعوط كل دواء يُسعط مما له حرارة أو يدنى من الأنف ليجد ريحه وحرَّه ، ويسمى كذلك النَّشوق » (من القاموس) .

(١٢٦١) جمع نَطَف وهو العيب والشر والفساد (من القاموس)

(١٢٦٢) « اللَّعوق كصبور ما يلعق » (القاموس) .

(١٢٦٣) السُّدَّة بالضم باب الدار والفتحة والجمع سُدَد مثل غرفة وغرف « من الصحاح والقاموس » والمقصود فتحات أمعائه ، أى لمنع فتحات أمعائه وتجاويفها من الانسداد .

(١٢٦٤) « فصلت المرأة رضيعها فطمته والاسم الفِصال بالكسر » (المصباح) انظر كذلك تعليق رقم ٣٦٣ .

الفصال صار بدنا إنسانياً بالفعل ، فكانت حاجته حينئذ إلى الطبيب أشدّ . فهذه الصناعة — كما تراه — ضرورية فى العمران للنوع الإنسانى لا يتم كون أشخاصه فى الغالب دونها .

وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة : إما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقاً للعادة كما فى حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ أو بإلهام وهداية يلهمهم لها المولود ويُفطر عليها ، فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة . فأما شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيراً . ومنه ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم ولد مسروراً[١٢٦٥] مختوناً واضعاً يديه على الأرض شاخصاً ببصره إلى السماء . وكذلك شأن عيسى فى المهد وغير ذلك . وأما شأن الإلهام فلا ينكر ؛ وإذا كانت الحيوانات العجْم تختص بغرائب من الإلهامات كالنحل وغيرها[١٢٦٦] ، فما ظنك بالإنسان المفضل عليها وخصوصاً بمن اختص بكرامة الله[١٢٦٦ب] . ثم الإلهام العام للمولودين فى الإقبال على الثدى أوضح شاهد على وجود الإلهام العام لهم ، فشأن العناية الإلهية أعظم من أن يحاط به . ومن هنا يفهم بطلان رأى الفارابى وحكماء الأندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الأنواع ، واستحالة انقطاع المكونات ، وخصوصاً فى النوع الإنسانى . وقالوا لو انقطعت أشخاصه لاستحال وجودها بعد ذلك ، لتوقفه على هذه الصناعة التى لا يتم كون الإنسان إلا بها ، إذ لو قدرنا مولوداً دون هذه الصناعة وكفالتها إلى حين الفِصال[٢٦٣] لم يتم بقاؤه أصلا . ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لأنها ثمرته

(١٢٦٥) « سَرَّ الصبىَّ قطع سُرَّه ، وقد سُرَّ الصبىُّ بالبناء للمجهول أى قُطِع سُرُّه فهو مسرور أى مقطوع السُّرِّ » (من الصحاح)

(١٢٦٦) إشارة إلى قوله تعالى . « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يَعْرِشون ... الآيات » (آية ٦٨ وتوابعها من سورة النحل وهى سورة ١٦) .

(١٢٦٦ ب) يشير بذلك إلى قوله تعالى « ولقد كرّمنا بنى آدم » (آية ٧٠ من سورة الإسراء ، وهى سورة ١٧) .

وتابعة له . وتكلف ابن سينا فى الرد على هذا الرأى لمخالفته إياه ، وذهابه إلى إمكان انقطاع الأنواع ، وخراب عالم التكوين ، ثم عوده ثانياً لاقتضاءات فلكية وأوضاع غريبة تندر فى الأحقاب بزعمه ، فتقتضى تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم كونه إنساناً ، ثم يُقيَّض له حيوان يُخلق فيه إلهام لتربيته والحنو عليه ، إلى أن يتم وجوده وفصاله.[٣٦٣] وأطنب فى بيان ذلك فى الرسالة التى سماها رسالة حى بن يقظان.(١٢٦٧) وهذا الاستدلال غير صحيح ، وإن كنا نوافقه على انقطاع الأنواع ، لكن من غير ما استدل به ، فإن دليله مبنى على إسناد الأفعال إلى العلة الموجبة(١٢٦٨) ، ودليل القول بالفاعل المختار(١٢٦٩) يرد عليه . ولا واسطة ، على القول بالفاعل المختار ، بين الأفعال والقدرة القديمة . ولا حاجة إلى هذا التكلف . ثم لو سلمناه جدلا فغاية ما ينبنى عليه اطراد وجود هذا الشخص بخلق الإلهام لتربيته فى الحيوان الأعجم . وما الضرورة الداعية لذلك ؟ وإذا كان الإلهام يُخلق فى الحيوان الأعجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه أولا ؟ وخلق الإلهام فى شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره . فكلا المذهبين(١٢٧٠) شاهدان على أنفسهما بالبطلان فى مناحيهما لما قررته لك . والله تعالى أعلم .

(١٢٦٧) لابن سينا رسالة اسمها قصة حى بن يقظان ، طبعت بمطبعة ليدن ، وهى غير الكتاب المشهور « حى بن يقظان » لابن طفيل .

(١٢٦٨) أى إن الأفعال لا توجد إلا بعلة توجب وجودها .

(١٢٦٩) وهو الله تعالى الذى لا يحتاج إلى علة تتوسط بين إرادته وبين خلقه للأشياء .

(١٢٧٠) يقصد مذهب الفارابى فى عدم انقراض الأنواع ومذهب ابن سينا فى إمكان انقطاع الأنواع .

٢٩ — فصل فى صناعة الطب وأنها محتاج اليها فى الحواضر والأمصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية فى المدن والأمصار لما عرف من فائدتها ، فإن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء ، ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم . واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الجامع للطب وهو قوله : « المعدة بيت الداء ، والحِمْية رأس الدواء ، وأصل كل داء البَرْدة » (١٢٧١) . فأما قوله : « المعدة بيت الداء » فهو ظاهر . وأما قوله : « الحِمْية رأس الدواء » فالحمية الجوع وهو الاحتماء من الطعام ، والمعنى أن الجوع هو الدواء العظيم الذى هو أصل الأدوية . وأما قوله : « أصل كل داء البَرْدة » فمعنى البَرْدة إدخال الطعام على الطعام فى المعدة قبل أن يتم هضم الأول .

وشرح هذا أن الله سبحانه خلق الإنسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالأكل ، وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية إلى أن يصير دماً ملائماً لأجزاء البدن من اللحم والعظم ، ثم تأخذه الغاذية فينقلب لحماً وعظماً . ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزية طوراً بعد طور حتى يصير جزءاً بالفعل من البدن . وتفسيره أن الغذاء إذا حصل فى الفم ولاكته الأشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخاً يسيراً وقلبت مزاجه بعض الشىء كما تراه فى اللقمة إذا تناولتها طعاماً ، ثم أجدتها مضغاً ، فترى مزاجها غير مزاج الطعام ، ثم يحصل فى المعدة فتطبخه حرارة المعدة إلى أن يصير كيموساً وهو صفو ذلك المطبوخ ، وترسله إلى الكبد ، وترسل

(١٢٧١) البَرْدة بسكون الراء وفتحها التُّخَمة . — هذا ، والحديث المذكور حديث موضوع وقد أخذه الواضعون من كلام الحارث بن كَلَدَة طبيب العرب كما حققه علماء الحديث .

ما رسب منه فى المعى ثُفْلا(١٢٧١ب) ينفذ إلى المخرجين . ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس إلى أن يصير دماً عبيطاً وتطفو عليه رغوة من الطبخ هى الصفراء ، وترسب منه أجزاء يابسة هى السوداء ، ويقصر الحار الغريزى بعض الشىء عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم . ثم ترسلها الكبد كلها فى العروق والجداول ويأخذها طبخ الحار الغريزى هناك ، فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيوانى ، وتأخذ النامية مأخذها فى الدم فيكون لحماً ، ثم غليظه عظاماً ، ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجاته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع . هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة إلى الفعل لحماً (١٢٧٢)

ثم إن أصل الأمراض ومعظمها هى الحميات . وسببها أن الحار الغريزى قد يضعف عن تمام النضج فى طبخه فى كل طور من هذه ، فيبقى ذلك الغذاء دون نضج . وسببه غالباً كثرة الغذاء فى المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزى ، أو إدخال الطعام إلى المعدة قبل أن تستوفى طبخ الأول ، فيستقل به الحار الغريزى ويترك الأول بحاله ، أو يتوزع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج ، وترسله المعدة كذلك إلى الكبد ، فلا تقوى حرارة الكبد أيضاً على انضاجه ، وربما بقى فى الكبد من الغذاء الأول فضلة غير ناضجة ، وترسل الكبد جميع ذلك إلى العروق

(١٢٧١ب) « الثُّفْل مثل فقل حُثالة الشىء وهو الثخين الذى يبقى أسفل الصافى » (المصباح)

(١٢٧٢) تمثل الحقائق السابق ذكرها ما وصل إليه العلم بعناصر الجهاز الهضمى وإفرازاته ووظائفه فى العالم العربى فى عصر ابن خلدون . وغنى عن البيان أن البحوث العلمية التى جرت بعد ذلك قد عدلت كثيرا من هذه المعلومات ، وكشفت عن خطأ كثير منها ، وأضافت إليها حقائق جديدة . ويضيق المقام عن بيان هذه الأمور . على أنها أصبحت الآن من الأمور المعروفة حتى للمبتدئين من المتعلمين . — ومن الأمور التى يبدو فيها خطأ المعلومات التى كانت سائدة فى هذا الصدد ما ذكره ابن خلدون عن مضغ الطعام وأن حرارة الفم هى التى تؤثر فيه ، والحقيقة أن الذى يؤثر فيه هو مادة اللعابين التى تمتزج به ، وما ذكره عن هضم الطعام فى المعدة وأن حرارة المعدة هى التى تؤثر فى هضمه ، والحقيقة أن الذى يؤثر فيه يتمثل فى الإفرازات التى تفرزها المعدة . ومثل هذا يقال فى جميع ما سيذكره من حقائق تتعلق بتدبير الصحة أو بالطب أو بعلم وظائف الأعضاء .

غير ناضج كما هو . فإذا أخذ البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الأخرى من العرق والدمع واللعاب إن اقتدر على ذلك . وربما يعجز عن الكثير منه ، فيبقى فى العروق والكبد والمعدة ، وتتزايد مع الأيام . وكل ذى رطوبة من الممتزجات إذا لم يأخذه الطبخ والنضج يعفن ، فيتعفن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط ، وكل متعفن ففيه حرارة غريبة وتلك هى المسماة فى بدن الإنسان بالحمى. واختبر ذلك بالطعام إذا ترك حتى يتعفن وفى الزبل إذا تعفن أيضاً كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها . فهذا معنى الحميات فى الأبدان ، وهى رأس الأمراض وأصلها كما وقع فى الحديث[١٢٧١] .

وهذه الحميات علاجها بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة ، ثم يناوله الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه . وذلك فى حال الصحة علاج فى التحفظ من هذا المرض وأصله كما وقع فى الحديث[١٢٧١] ، وقد يكون ذلك العفن فى عضو مخصوص فيتولد عنه مرض فى ذلك العضو ، ويحدث جراحات[١٢٧٢ب] فى البدن إما فى الأعضاء الرئيسية أو فى غيرها . وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له . هذه كلها جماع[١٢٧٣] الأمراض ؛ وأصلها فى الغالب من الأغذية ؛ وهذا كله مرفوع إلى الطبيب .

ووقوع هذه الأمراض من أهل الحضر والأمصار أكثر لخصب عيشهم ، وكثرة مآكلهم ، وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الأغذية ، وعدم توقيتهم لتناولها . وكثيرا ما يخلطون بالأغذية من التوابل والبقول والفواكه رطبا ويابساً فى سبيل العلاج بالطبخ ، ولا يقتصرون فى ذلك على نوع أو أنواع ، فربما عددنا فى اليوم الواحد من ألوان الطبخ أربعين نوعاً من النبات والحيوان ، فيصير للغذاء

(١٢٧٢ ب) هكذا فى جميع النسخ ، ولعلها « خراجات » جمع خُرَاج .

(١٢٧٣) « جِمَاع الشىء بالكسر جمعه ، يقال جِمَاع الخباء أخبية ، والخمر جِمَاع الإثم (الصحاح) .

مزاج غريب . وربما يكون غريباً عن ملاءمة البدن وأجزائه . ثم إن الأهوية فى الأمصار تفسد بمخالطة الأبخرة العفنة من كثرة الفضلات ، والأهوية منشطة للأرواح ومقوية بنشاطها الأثر الحار الغريزى فى الهضم . ثم الرياضة مفقودة لأهل الأمصار إذ هم فى الغالب وادعون ساكنون لا تأخذ منهم الرياضة شيئاً ، ولا تؤثر فيهم أثرا . فكان وقوع الأمراض كثيرا فى المدن والأمصار ، وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة .

وأما أهل البدو فمأكولهم قليل فى الغالب ، والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب ، حتى صار لهم ذلك عادة ، وربما يظن أنها جِبِلَّة لاستمرارها . ثم الادْم [٢٤٧] قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة . وعلاج الطبخ بالتوابل والفواكه إنما يدعو إليه ترف الحضارة الذين هم بمعزل عنه ، فيتناولون أغذيتهم بسيطة بعيدة عما يخالطها ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن . وأما أهويتهم فقليلة العفن لقلة الرطوبات والعفونات إن كانوا آهِلين (١٢٧٤) أو لاختلاف الأهوية إن كانوا ظواعن . ثم إن الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة فى ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات لمهنة أنفسهم فى حاجاتهم . فيحسن بذلك كله الهضم ويجود ويفقد إدخال الطعام على الطعام ، فتكون أمزجتهم أصلح وأبعد من الأمراض ، فتقل حاجتهم إلى الطب . ولهذا لا يوجد الطبيب فى البادية بوجه . وما ذاك إلا للاستغناء عنه ؛ إذ لو احتيج إليه لوجد ، لأنه يكون له بذلك فى البدو معاش يدعوه إلى سكناه . سنة الله التى قد خلت فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(١٢٧٤) آهَل المكان أُهُولا من باب قعد عمر بأهله فهو آهل ، وقرية آهلة عامرة . وقد أطلق ابن خلدون الوصف على الأفراد أنفسهم ، فيقصد بالآهلين المقيمين . والظاعن المسافر من ظَعَن ظَعْناً من باب نفع .

٣٠ — فصل فى أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما فى النفس ؛ فهو ثانى رتبة من الدلالة اللغوية . وهو صناعة شريفة إذ الكتابة من خواص الإنسان التى يميز بها عن الحيوان . وأيضا فهى تُطْلِع على ما فى الضمائر وتتأدّى بها الأغراض إلى البلد البعيد ، فتُقضى الحاجاتُ ، وقد دُفعت مؤونةُ المباشرة لها ، ويُطّلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين ، وما كتبوه من علومهم وأخبارهم . فهى شريفة بهذه الوجوه والمنافع .

وخروجها فى الإنسان من القوة إلى الفعل إنما يكون بالتعليم . وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغى[٢٤٦] فى الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط فى المدينة ، إذ هو من جملة الصنائع ، وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران . ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرءون . ومن قرأ منهم أو كتب فيكون الخط قاصرا وقراءته غير نافذة . ونجد تعليم الخط فى الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقاً ، لاستحكام الصنعة فيها ، كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد[١١٢٥] ، وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوانين وأحكاماً فى وضع كل حرف ، ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه فتعتضد لديه رتبة العلم والحس فى التعليم ، وتأتى ملكته على أتم الوجوه . وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الأعمال .

[وليس الشأن فى تعليم الخط بالأندلس والمغرب كذلك فى تعلم كل حرف

بانفراده على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم ؛ وإنما يتعلم بمحاكاة الخط فى كتابة الكلمات جملة[١٢٧٥] ويكون ذلك من المتعلم ومطالعة المعلم له إلى أن تحصل له الإجادة ، وتتمكن فى بنائه الملكة فيسمى مجيداً][١٢٧٦] .

وقد كان الخط العربى بالغاً مبالغه من الإحكام والإتقان والجودة فى دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف ، وهو المسمى بالخط الحِمْيَرى . وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة فى العصبيه والمجددين لملك العرب بأرض العراق . ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين ، وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك . ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش فيما ذكر . ويقال إن الذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية ، وأخذها من أسلم بن سدرة ، وهو قول ممكن ، وأقرب ممن ذهب إلى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق لقول شاعرهم :

قوم لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والخط والقلم

(١٢٧٥) من هذا يتبين أن الطريقة الحديثة التى تتبع الآن فى تعليم الهجاء ، والتى يسميها علماء التربية ، طريقة « الجشتالت » أو طريقة الكلمات والجمل ، وهى التى تقتضى بأن يبدأ فى الهجاء برسم الكلمات والجمل كانت متبعة منذ عهد بعيد فى المغرب والأندلس ، وهى أمثل طريقة من الوجهة التربوية لمسايرتها للواقع من جهة ولطبيعة العقل الإنسانى من جهة أخرى . فالواقع أن الكلمة هى التى لها مدلول فى ذهن الطفل ؛ أما الحرف فلا مدلول له . والعقل الإنسانى ينتقل بطبيعته من إدراك الكل إلى إدراك أجزائه (جشتالت) لا العكس . — ومن هذا يتبين خطأ ابن خلدون فى تفضيله لطريقة المصريين فى عهده ، وهى الطريقة التى تبدأ بالحروف فى تعليم الهجاء (انظر مؤلفاتنا : « عوامل التربية » صفحتى ٢١٤ ، ٢١٥ ؛ و « أصول التربية ونظام التعليم » صفحتى ١٢٣ ، ١٢٤ ؛ و « مواد الدراسة » صفحة ٣٣) .

(١٢٧٦) الموضوع بين هذين القوسين [ ] تزيد به طبعة باريس على الطبعات المتداولة (انظر صفحة ٣٢٩ من الجزء الثانى من طبعة كاترمير) . وهو كذلك مثبت فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ .

وهو قول بعيد لأن إياداً و إن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة ؛ والخط من الصنائع الحضرية . و إنما معنى قول الشاعر أنهم أقرب إلى الخط والقلم من غيرهم من العرب ، لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوهامن الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال .

[ورأيت فى كتاب التكملة لأبن الأبار عند التعريف بابن فروخ القيروانى الفاسى الأندلسى ، من أصحاب مالك رضى الله عنه واسمه عبد الله بن فروخ عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن أبيه ، قال : قلت لعبد الله بن عباس يامعشر قريش خبرونى عن هذا الكتاب(١٢٧٧) العربى ، هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما أفترق مثل الألف واللام والنون ؟ قال نعم . قلت وممن اتخذتموه ؟ قال عن حرب بن أمية . قلت وممن أخذه حرب ؟ قال من عبد الله بن جدعان . قلت وممن أخذه عبد الله بن جدعان ؟ قال من أهل الأنبار . قلت وممن أخذه الأنبار؟ قال من طارىء طرأ عليهم من أهل اليمن . قلت وممن أخذه ذلك الطارىء ؟ قال من الخلجان بن قاسم كاتب الوحى لهود النبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى يقول :

أفى كل عام سُنَّة تحدثونها ورأى على غير الطريق يعبر
ولَلْموت خير من حياة تسبّنا بهاجُرْهُم فيمن يُسَب وحِمْير (١٢٧٨)

(١٢٧٧) مصدر كتب يكتب كَتْباً وكتابا ، أى خبرونى عن هذه الكتابة العربية ، أى الرسم العربى .

(١٢٧٨) لايخفى ما فى هذه الأسطورة من اختلاق . فعاد قوم هود كان لسانهم يختلف كل الاختلاف عن اللسان العربى القرشى ، وأسلوب البيتين الركيكين المضطربين يدل هو نفسه على أنهما من صنع المحدثين فى العصر الاسلامى .

انتهى ما نقله ابن الأبار فى كتاب « التكملة » . وزاد فى آخره حدثنى بذلك أبو بكير بن أبى حميرة فى كتابه عن أبى بحر بن العاصى عن أبى الوليد الوقشى عن أبى عمر الطلمنكى بن أبى عبد الله بن مفرح ، ومن خطه نقلته عن أبى سعيد بن يونس عن محمد بن موسى بن النعمان عن يحيى بن محمد بن خشيش بن عمر بن أيوب المغافرى التونسى عن بهلول بن عبيدة التجيبى (١٢٧٨ ب) عن عبد الله بن فروخ . انتهى] (١٢٧٩) .

وكان لِحِمْيَر كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة ، وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم . ومن حمير تعلمت مضرُ الكتابة العربية . إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو ، فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإتقان والتنميق ، لبون مابين البدو والصناعة ، واستغناء البدو عنها فى الأكثر . فكانت كتابة العرب بدوية مثل كتابتهم أو قريباً من كتابتهم لهذا العهد ، أو نقول إن كتابتهم لهذا العهد أحسن صناعة ، لأن هؤلاء أقرب إلى الحضارة ومخالطة الأمصار والدول . وأما مضر فكانوا أعرق فى البدو وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر . فكان الخط العربى لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ، ولا إلى التوسط ، لمكان العرب من البداوة والتوحش وبُعدهم عن الصنائع (١٢٨٠) .

(١٢٧٨ ب) هكذا فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ . وفى طبعة باريس « الحمى » .

(١٢٧٩) المحصور بين هذين القوسين [ ] تزيد به طبعة باريس على الطبعات المتداولة (انظر صفحتى ٣٤٠ ، ٣٤١ من الجزء الثانى من طبعة كاترمير) . — وهو كذلك مثبت فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ .

(١٢٨٠) بعض ما ذكره ابن خلدون عن أصل الخط العربى صحيح ، وكثير منه غير صحيح . وتحرير القول فى هذا الموضوع نوجزه فيما يلى :

اجتاز الرسم العربى خمس مراحل : =

وانظر ماوقع لأجل ذلك فى رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم »

= ١ — فأقدم رسم وصلت إلينا اللغة العربية مدونة به كان مشتقا من خط المسند (الرسم اليمنى القديم) ، كما تدل على ذلك آثار اللغة العربية البائدة ، وخاصة ثلاثة أنواع من النقوش وهى النقوش اللحيانية والنقوش الثمودية والنقوش الصفوية . وخط المسند ، أو الخط الحميرى كما يسميه ابن خلدون ، مشتق من الرسم الفينيقى ، ويشبهه من عدة وجوه . ولكنه يمتاز عنه بجمال التنسيق والأشكال الهندسية المنظمة التى يتألف منها كثير من حروفه . وبرسم متفرق الحروف .

٢ — ثم أخذ الرسم النبطى ، وهو نوع من أنواع الرسم الآرامى يمتاز بأن معظم حروفه تتصل بما قبلها ، يتغلب فى تدوين اللغة العربية على هذا الرسم القديم ، وينتقص من مناطق نفوذه ومواطن استخدامه شيئا فشيئاً حتى قضى عليه . — وأقدم أثر عربى وصل إلينا بعد هذا التطور « هو نقش النّمارة » .

٣ — ثم ظهر فى كتابة اللغة العربية نوع ثالث من الرسم مشتق من الرسم النبطى السابق ، ومثل للرسم العربى فى أقدم أدواره . وبهذا النوع من الرسم دون نقشا زَبَد وحوران . وكلاهما لا يجد من يعرف الرسم العربى الحالى كبير عناء فى قراءته ، وخاصة نقش حوران فإنه قريب جدا من الرسم الحالى .

٤ — ثم تأثر الرسم العربى بالرسم السريانى ودخلت فيه إصطلاحات كثيرة من القرن السابع الميلادى ، فتحول إلى رسم سريع تدون به المكاتبات العادية لا النقوش الأثرية وحدها كما كان شأن الرسم السابق . ودخل فيه نظام الإعجام للتمييز بين الحروف المتحدة الصورة المختلفة النطق (ب ت ث ، ج ح خ ، د ذ ، ر ز ، س ش ، ص ض ... الخ) — ولكنه ظل طوال هذه المرحلة مقتصرا على الرمز إلى الأصوات الساكنة ومجردا من علامة للتمييز بين الحرف المشدد والمخفف .

٥ — ثم أدخل فى الرسم العربى نظام الرمز إلى أصوات المد الطويلة ، واستخدم فى ذلك ثلاثة أحرف وضعت فى الأصل للرمز الى ثلاثة أصوات وسط بين أصوات المد والأصوات الساكنة ، وهى الهمزة والياء والواو . فأصبحت هذه الحروف مزدوجة الاستخدام : ترمز أحيانا إلى ما وضعت فى الأصل للرمز إليه (أكتب ، يكتب ، وعد) ؛ وترمز أحيانا إلى أصوات المد الطويلة (كاتب ، دليل ، ملوك) . — وأدخل فيه كذلك نظام الحركات ، وهى علامات تشير إلى تحرك الحرف بصوت مد قصير وإلى خلوه من الحركة وإلى تشديده (الفتحة ، الكسرة ، الضمة ، السكون ، الشدة) .

وأقدم أثر إسلامى وصل إلينا متضمنا بعض مظاهر من الإصلاحات التى أدخلت على الرسم العربى فى المرحلتين الأخيرتين (٤ ، ٥) هو حجر كشف فى مصر ومحفوظ فى دار الآثار العربية فى القاهرة وتدل عباراته على أنه كان نُصُبا على قبر رجل يدعى عبد الرحمن بن خير أو جر أو جابر أو جبير الحجرى أو الحجازى ويرجع تاريخه إلى سنة ٣٠ للهجرة: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر لعبد الرحمن بن خير الحجرى اللهم اغفرله وأدخله فى رحمة منك ... الخ) . —

وكانت غير مستحكمة فى الإجادة ، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها . ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه ، كما يقتفى لهذا العهد خط ولى أو عالم تبركا ويتبع رسمه خطأ أو صواباً ، وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه ؛ فاتُّبِع ذلك وأُثْبِت رسما ونبه العلماء بالرسم على مواضعه .

ولا تلتفتن فى ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط ، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكلها وجه . ويقولون فى مثل زيادة الألف فى لا أذبحنه[١٢٨١] إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع ، وفى زيادة الياء فى بأييد[١٢٨٢] إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية ، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض . وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم

= غير أنه يظهر أن إصلاحات هذه المرحلة والمرحلة السابقة لها لم تكن قد كملت فى العهد الذى رسم فيه المصحف العثمانى ، أو لم يكن استخدامها قد انتشر حينئذ كل الانتشار ؛ أو لم يكن الصحابة ممن رسموا المصحف على علم تام بها (وإلى هذا الاحتمال يميل ابن خلدون فى الفقرة التالية للفقرة التى نعلق عليها) ، أو أنهم قد تحرجوا من إدخالها فى رسم القرآن ، فجاءت المصاحف العثمانية مجردة من الإعجام والشكل ، وجاءت فيها كلمات كثيرة مجردة من حروف المد الطويلة ، ورسمت فيها حروف كثيرة فى صور مضطربة غير صحيحة .

(انظر تفصيل هذا الموضوع وما يتصل به فى صفحات ٢٤٦ — ٢٦٦ من الطبعة الرابعة من كتابنا « فقه اللغة ») .

(١٢٨١) فى قوله تعالى حكاية عن سليمان : « وتفقَّد الطير فقال مالى لا أرى الهُدْهُد أم كان من الغائبين . لأعذبنّه عذاباً شديدا أو لأذبحنّه أو ليأتينّى بسلطان مبين » (آيتى ٢٠ ، ٢١ من سورة النمل ، وهى سورة ٢٧) . وترسم هذه الآية الأخيرة فى المصحف العثمانى على هذه الصورة : « لأعذبنه عذابا شديدا أو لا أذبحنه أو ليأتينى بسلطن مبين » .

(١٢٨٢) فى قوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيْد وإنّا لموسعون » (آية ٤٧ من سورة الذاريات وهى سورة ٥١) . وترسم هذه الآية فى المصحف العثمانى على هذه الصورة « والسماء بنينها بأييد وإنا لموسعون » .

أن فى ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص فى قلة إجادة الخط ، وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته ، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه . وذلك ليس بصحيح . واعلم أن الخط ليس بكمال فى حقهم ؛ إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر ؛ والكمال فى الصنائع إضافى وليس بكمال مطلق ؛ إذ لا يعود نقصه على الذات فى الدين ولا فى الخلال ؛ وإنما يعود على أسباب المعاش ، وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما فى النفوس . وقد كان صلى الله عليه وسلم أمياً وكان ذلك كمالا فى حقه ، وبالنسبة إلى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التى هى أسباب المعاش والعمران كلها ؛ وليست الأمية كمالا فى حقنا نحن إذ هو منقطع إلى ربه ، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا ، شأن الصنائع كلها ؛ حتى العلوم الاصطلاحية ؛ فإن الكمال فى حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا .

ثم لما جاء الملك للعرب وفتحوا الأمصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة ، واحتاجت الدولة إلى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه ، فترقت الإجادة فيه ، واستحكم وبلغ فى الكوفة والبصرة رتبة من الإتقان ؛ إلا أنها كانت دون الغاية . والخط الكوفى معروف الرسم لهذا العهد .

ثم انتشر العرب فى الأقطار والممالك ؛ وافتتحوا إفريقية والأندلس واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها إلى الغاية لما استبحرت [١١٣١ ب] فى العمران وكانت دار الإسلام ومركز الدولة العربية . [وخالفت أوضاع الخط ببغداد أوضاعه فى الكوفة ، فى الميل إلى إجادة الرسوم وجمال الرونق وحسن الرواء . واستحكمت هذه المخالفة فى الأعصار إلى أن رفع رايتها ببغداد على بن مقلة الوزير ، ثم تلاه فى ذلك على بن هلال الكاتب الشهير بابن البواب . ووقف سند تعليمها فى المائة الثالثة وما بعدها . وبعدت رسوم الخط البغدادى وأوضاعه عن الكوفة ، حتى انتهت إلى المباينة . ثم ازدادت المخالفة بعد تلك العصور بتفنن الجهابذة

فى إحكام رسومه وأوضاعه ، حتى انتهت إلى المتأخرين مثل ياقوت والولى على العجمى ؛ ووقف سند تعليم الخط عليهم ؛ وانتقل ذلك إلى مصر ، وخالفت طريقة العراق بعض الشىء ، ولقنها العجم هناك ، فظهرت مخالفة خط أهل مصر أو مباينة[(١٢٨٣)] .

وكان الخط البغدادى معروف الرسم . وتبعه الإفريقى المعروف رسمه القديم لهذا العهد . ويقرب من أوضاع الخط المشرقى . وتحيز ملك الأندلس بالأمويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط ، فتميز صنف خطهم الأندلسى كما هو معروف الرسم لهذا العهد .

وطما بحر العمران والحضارة فى الدول الإسلامية فى كل قطر ، وعظم الملك ، ونَفَقت[٤٤] أسواق العلوم وانتسخت الكتب وأجيد كَتْبُها[١٢٧٧] وتجليدها ، وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كِفاء[٩٦١] له ، وتنافس أهل الأقطار فى ذلك وتناغوا[٢٤٦] فيه .

ثم لما انحل نظام الدولة الإسلامية وتناقصت تناقص ذلك أجمع ودَرَست[١٤٧] معالم بغداد بدروس الخلافة ، فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل[٢٤٤] والعلم إلى مصر والقاهرة ، فلم تزل أسواقه بها نافقة[٤٤] لهذا العهد ، وله بها معلمون يرسمون للمتعلم الحروف بقوانين فى وضعها وأشكالها متعارفة بينهم ، فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد لقنها حسا ، وحذق فيها دربة وكتاباً ، وأخذها قوانين علمية ، فتجىء أحسن ما يكون .

وأما أهل الأندلس فافترقوا فى الأقطار عند تلاشى ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر ، وتغلبت عليهم أمم النصرانية فانتشروا فى عُدوة المغرب

(١٢٨٣) المحصور بين هذين القوسين [ ] تزيد به طبعة باريس على النسخ المتداولة (انظر ص ٣٤٤ من الجزء الثانى من طبعة كاترمير) . وهو كذلك مثبت فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ .

وإفريقية ، [٤٩ب] من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد ، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع ، وتعلقوا بأذيال الدولة ، فغلب خطهم على الخط الإفريقي وعفا[١٤٦] عليه ، ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدها وصنائعهما ، وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها ، لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس . وبقي منه رسم ببلاد الجريد[٣١٦] الذين لم يخالطوا كُتّاب الأندلس ولا تمرسوا بجوارهم ، إنما كانوا يفدون على دار الملك بتونس ، فصار خط أهل إفريقية من أحسن خطوط أهل الأندلس . حتى إذا تقلص ظل الدولة المُوَحِّدية[٩٣٦] بعض الشيء ، وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران ، نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه ، وجُهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران . وبقيت فيه آثار الخط الأندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك ، لما قدمناه من أن الصنائع إذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها . (١٢٨٣ ب) وحصل في دولة بني مَرِين[٧٨٠] من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي ، لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريباً ، واستعمالهم إياهم سائر الدولة . (١٢٨٣ جـ) ونسي عهد الخط فيما بَعُد عن سُدّة الملك وداره كأنه لم يعرف . فصارت الخطوط بإفريقية والمغربين مائلة إلى الرداءة بعيدة عن الجودة ، وصارت الكتب إذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الأشكال الخطية

(١٢٨٣ ب) تقدم ذلك في الفصل الثامن عشر من هذا الباب (فصل في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها) (انظر صفحة ٩٢٦ وتوابعها) .

(١٢٨٣ جـ) هكذا في جميع النسخ ، والعبارة ركيكة . ويظهر أن معناها أنه قد انتقل إلى المغرب في عهد دولة بني مرين لون من الخط الأندلسي لمجاورة المغرب الأقصى للأندلس ولهجرة كثير من الأندلسيين إلى فاس ، ولاستخدام بني مرين لهؤلاء المهاجرين في بعض الوظائف طوال مدة دولتهم .

عن الجودة ، حتى لا تكاد تقرأ إلا بعد عسر ، ووقع فيه ما وقع فى سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول . والله أعلم (١٢٨٣د) .

[وللأستاذ أبى الحسن على بن هلال الكاتب البغدادى الشهير بابن البواب قصيدة من بحر البسيط (١٢٨٤) على رَوِىِّ الراء يذكر فيها صناعة الخط وموادها من أحسن ما كتب فى ذلك ، رأيت إثباتها فى هذا الكتاب من هذا الباب لينتفع بها من يريد تعلم هذه الصناعة ، وأولها :

يامن يريد إجادة التحرير ويروم حسن الخط والتصوير

إن كان عزمك فى الكتابة صادقاً فارغب إلى مولاك فى التيسير

أعْدِد من الأقلام كل مُثَقَّف (١٢٨٥) صلب يصوغ صناعة التحبير

وإذا عمدت لبريه (١٢٨٦) فَتَوَخَّه عند القياس بأوسط التقدير

انظر إلى طرفيه فاجعل بَرْيَه من جانب التدقيق والتخصير

واجعل لِجِلْفَتِه (١٢٨٧) قَوَاما (١٢٨٨) عادلا يخلو عن التطويل والتقصير

والشق وسطه ليبقى بريه من جانبيه مشاكل التقدير

(١٢٨٣د) فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠ : « والله يحكم لا مُعَقِّب لحكمه » (آية ٤١ من سورة الرعد) ، بدلا من : « والله أعلم » .

(١٢٨٤) أجزاء بحر البسيط هى مُسْتَفْعِلُنْ فاعِلن أربع مرات ؛ والقصيدة الآتية ليست من هذا البحر ، بل هى من بحر الكامل وأجزاؤه مُتفاعلن ست مرات .

(١٢٨٥) ثقّف الشىء تثقيفا سوّاه وأقام المعوج منه (من القاموس والمصباح) .

(١٢٨٦) برى السهم والقلم يبريه وابتراه نحته (من القاموس) .

(١٢٨٧) « الجلْفة بكسر الجيم وفتحها من القلم ما بين مبراه إلى سِنَّته ، ومنه قول عبد الحميد الكاتب لسَلْم بن قتيبة وقد رآه يكتب رديئا : « إن كنت تحب أن يجود خطك فأَطِلْ جِلْفَتَك وأسمنها وحَرِّفْ قطتك وأَيْمِنْها » (القاموس) .

(١٢٨٨) قامة الإنسان والشىء وقَوامه بالفتح ، والقَوام كذلك العدل والاعتدال ؛ يقال هو حسن القوام أى القامة أو الاعتدال . (من المصباح والقاموس) .

obeikandi.com

حتى إذا أتقنت ذلك كله   إتقان طَبٍّ (١٢٨٩) بالمراد خبير
فاصرف لرأى القطِّ (١٢٨٩ب) عزمك كلَّه   فالقطُّ فيه جملة التدبير
لا تطمعن فى أن أبوح بِسِرِّه   إنى أضن بسره المستور
لكنَّ جملة ما أقول بأنه   ما بين تحريف إلى التدوير
وأَلِقْ (١٢٩٠) دواتك بالدخان (١٢٩٠ب) مُدَبَّراً   بالخل أو بالحِصْرِم (١٢٩١) المعصور
وأضف إليه مَغْرَةً (١٢٩٢) قد صُوِّلت (١٢٩٣)   مع أصفر الزرنيخ والكافور
حتى إذا ما خُمِّرَتْ فاعمد إلى   الورق النقى الناعم المخبور
فاكبسه بعد القطع بالمعصار (١٢٩٤) كى   ينأى عن التشعيث والتغيير
ثم اجعل التمثيل (١٢٩٥) دأبك صابرا   ما أدرك المأمولَ مثلُ صبور
ابدأ به فى اللوح منتضيا له   عزما تجرده عن التشمير

(١٢٨٩) « الطَّبُّ بالفتح الماهر الحاذق بعمله كالطبيب » (القاموس) .

(١٢٨٩ب) قطَّ القَلَم قطاً من باب قتل قطع رأسه عَرْضا فى بَرْيه .

(١٢٩٠) لاق الدواة يَليقُها لَيْقةً ولَيْقاً وألاقها جعل لها ليقةً . والليقة الصوفة أو الخرقة توضع فى الدواة ويصب عليها المداد ويضغط عليها بالقلم فتبتل بالمداد فيكتب به (من القاموس) .

(١٢٩٠ب) المادة السوداء التى تتكون من الدخان ، وكان يصنع منها المداد .

(١٢٩١) الحِصْرِم بكسر الحاء والراء أول العنب ما دام أخضر (القاموس) .

(١٢٩٢) المَغْرَة بسكون الغين وفتحها طين أحمر (القاموس) .

(١٢٩٣) التصويل إخراج الشىء بالماء (أى إذابته فى الماء) ، وحنطة مُصَوَّلة (القاموس) .

(١٢٩٤) المِعْصَار الذى يجعل فيه الشىء فيعصر (القاموس) .

(١٢٩٥) يقصد بالتمثيل تجربة القلم بكتابة أى شىء به ليرى مبلغ صلاحيته .

obeikandi.com

لا تخجلنّ من الرديء تخطه في أول التمثيل[١٢٩٥] والتسطير
فالأمر يصعب ثم يرجع هيّناً ولرُبّ سَهْلٍ جاء بعد عسير
حتى إذا أدركت ما أملته أضحيت رب مسرة وحبور
فاشكر إلاهك واتبع رضوانه إن الإلاه يجيب كل شكور
وارغب لكفك أن تخط بنانها خيراً تخلفه بدار غرور
فجميع فعل المرء يلقاه غدا عند التقاء كتابه المنشور]

[واعلم أن الخط بيان عن القول والكلام، كما أن القول والكلام بيان عما في النفس والضمير من المعاني. فلا بد لكل منهما أن يكون واضح الدلالة. قال الله تعالى: «خلق الإنسان علمه البيان»[١٢٩٦]. وهو يشتمل على بيان الأدلة كلها. فالخط المُجَوَّد كمالُه أن تكون دلالته واضحة بإبانة حروفه المتواضَعة، وإجادة وضعها ورسمها، كل واحد على حدة متميزة عن الآخر، إلا ما اصطلح عليه الكُتَّاب في إيصال حروف الكلمة الواحدة بعضها ببعض، سوى حروف اصطلحوا على قطعها مثل الألف المتقدمة في الكلمة وكذا الراء والزاي والدال والذال وغيرها، بخلاف ما إذا كانت متأخرة وهكذا إلى آخرها].

[ثم إن المتأخرين من الكتاب اصطلحوا على وصل كلمات بعضها ببعض وحذف حروف معروفة عندهم، لا يعرفها إلا أهل مصطلحهم، فتستعجم على غيرهم. وهؤلاء كتاب دواوين السلطان وسجلات القضاة، كأنهم انفردوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم، لكثرة موارد الكتابة عليهم، وشهرة كتابتهم، وإحاطة كثير من دونهم بمصطلحهم. فإن كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم فينبغي أن يعدلوا عن ذلك إلى البيان ما استطاعوا؛ وإلا كان بمثابة الخط

(١٢٩٦) الآيتان ٣، ٤ من سورة الرحمن وهي سورة ٥٥ .

الأعجمى ، لأنها بمنزلة واحدة فى عدم التواضع عليه . وليس يعذر فى هذا القدر إلا كُتَّاب الأعمال السلطانية فى الأموال والجيوش ؛ لأنهم مطلوبون بكتمان ذلك عن الناس ؛ فإنه من الأسرار السلطانية التى يجب إخفاؤها . فيبالغون فى رسم اصطلاح خاص بهم يصير بمثابة المُعَمَّى . وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروف بكلمات من أسماء الطيب والفواكة والطيور أو الأزاهر ووضع أشكال أخرى غير أشكال الحروف المتعارفة يصطلح عليها المتخاطبون لتأدية ما فى ضمائرهم بالكتابة .(١٢٩٧) وربما وضع الكتاب للعثور على ذلك . وإن لم يضعوه أولا قوانين بمقاييس(١٢٩٨) استخرجوها لذلك بمداركهم ويسمونها فك المُعَمَّى(١٢٩٩) . وللناس فى ذلك دواوين مشهورة . — والله العليم الحكيم(١٣٠٠)

٣١ — فصل فى صناعة الوراقة

كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات فى نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط . وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة . وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه فى الملة الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس . إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونَفاق[٤٤] أسواق ذلك لديهما ، فكثرت التآليف العلمية

(١٢٩٧) هو مانسميه الآن « الشَّفْرة » .

(١٢٩٨) هكذا فى الأصل ، وفى الجملة تحريف ؛ واستقامتها أن يقال : « وتضمن هذا الكتاب قوانين بمقاييس ، ويسمونها فكّ المُعَمَّى » .

(١٢٩٩) هو مانسميه الآن « مفتاح الشَّفْرة » .

(١٣٠٠) جميع المحصور بين هذه الأقواس [ ] من قوله : « وللاستاذ أبى الحسن ابن هلال » إلى آخر الفصل ، تزيد به طبعة باريس على الطبعات المتداولة (انظر صفحتى ٣٤٦ ، ٣٤٧ من الجزء الثانى من طبعة كاترمير ، وهو كذلك مثبت فى النسخة الخطية المشار إليها فى تعليق ٩٠٠) .

والدواوين، وحرص الناس على تناقلهما فى الآفاق والأعصار فانتسخت وجلدت، وجاءت صناعة الورّاقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العمران.

وكانت السجلات أولا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك فى الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد، لكثرة الرَّقّ[٥٠٧] وقلة التآليف صدر الملة كما نذكره، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك، فاقتصروا على الكتاب فى الرَّقّ تشريفاً للمكتوبات وميلا بها إلى الصحة والإتقان. ثم طما بحر التآليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرَّقُّ عن ذلك. فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد، وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه، واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية، وبلغت الإجادة فى صناعته ماشاءت.

ثم وقفت عناية أهل العلوم وهمم أهل الدول على ضبط الدواوين العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة إلى مؤلفيها وواضعيها، لأنه الشأن الأهم من التصحيح والضبط. فبذلك تسند الأقوال إلى قائلها والفُتيا إلى الحاكم بها المجتهد فى طريق استنباطها. وما لم يكن تصحيح المتون بإسنادها إلى مدونها، فلا يصح إسناد قول لهم ولا فُتيا. وهكذا كان شأن أهل العلم وحملته فى العصور والأجيال والآفاق؛ حتى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثية فى الرواية على هذه فقط؛ إذ ثمرتها الكبرى، من معرفة صحيح الأحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها، قد ذهبت[١٣٠١]، وتمخضت زُبْدَة فى تلك الأمهات المتلقاة بالقبول عند

(١٣٠١) الحديث الموضوع هو المكذوب المفترى على الرسول عليه السلام، ويعرف الوضع بإقرار الواضع ولو ضمنا، وبقرائن يدركها علماء الحديث: منها ما يؤخذ من حال الراوى؛ ومنها ما يؤخذ من المروى كأن يكون مناقضا لنص القرآن أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعى أو صريح العقل. وينقسم ما عداه أقساما كثيرة أشار ابن خلدون إلى بعضها فى الفصل الخاص بعلوم الحديث (الفصل الثانى عشر من الباب السادس بحسب ترتيبنا). وسنشرح المصطلحات التى ذكرها ابن خلدون هنا وهناك فى تعليقاتنا على فصل الحديث (انظر تعليقات ١٣٤٦ ب، ١٣٤٦ ج، ١٣٤٧، ١٣٤٨ ب).

الأمة[١٣٠٢] ، وصار القصـــد إلى ذلك لغوا من العمل ، ولم تبق ثمرة الرواية والاشتغال بها إلا فى تصحيح تلك الأمهات الحديثية وسواها من كتب الفقه للفُتيا وغير ذلك من الدواوين والتآليف العلمية واتصال سندها بمؤلفيها ، ليصح النقل عنهم والإسناد إليهم .

وكانت هذه الرسوم بالمشرق والأندلس معبَّدةَ الطرق واضحة المسالك . ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد فى أقطارهم على غاية من الإتقان والإحكام والصحة . ومنها لهذا العهد بأيدى الناس فى العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم فى ذلك . وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن ويشدون عليها يد الضَّنانة[١٣٠٣] . ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب وأهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة أهله ، وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط اليدوية ، ينسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف ، فتستغلق على متصفحها ولايحصل منها فائدة إلا فى الأقل النادر . وأيضاً فقد دخل الخلل من ذلك فى الفُتيا فإن غالب الأقوال المعزوة غير مروية عن أئمة المذهب ، وإنما تتلقى من تلك الدواوين على ما هى عليه . وتبع ذلك أيضاً ما يتصدى إليه بعض أئمتهم من التأليف ، لقلة بصرهم بصناعته ، وعدم الصنائع الوافية بمقاصده . ولم يبق من هذا الرسم بالأندلس إلا أثارة[١٣٠٤] خفية بالامِّحاء وهى على الاضمحلال . فقد كاد العلم ينقطع بالـكلية من المغرب . والله غالب على أمره .

(١٣٠٢) يقصد كتب الحديث المعتمدة كالبخارى ومسلم ، وهى التى سيتـكلم عليها فى فصل الحديث (الفصل الثانى عشر من الباب السادس بحسب ترتيبنا) .

(١٣٠٣) ضنَّ بالشىء يَضِنّ من باب تعب ضِنًّا وضِنَّة وضَنانة بالفتح بخل ، فهو ضنين ؛ ومن باب ضرب لغة (المصباح) .

(١٣٠٤) الأثارة البقية من العلم تؤثر (القاموس) ومنه قوله تعالى : « ايتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » (آية ٤ من سورة الأحقاف وهى سورة ٤٦) .

و يبلغنا لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالمشرق [١١٢٥] ، وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل على مبتغيه ، لنفاق [٤٤] أسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد . إلا أن الخط الذى بقى من الإجادة فى الانتساخ هنالك إنما هو للعجم وفى خطوطهم . وأما النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب وأشد . والله سبحانه وتعالى أعلم و به التوفيق .

٣٢ — فصل فى صناعة الغناء

هذه الصناعة هى تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة ، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة ، فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب ، وما يحدث عنه من الكيفية فى تلك الأصوات . وذلك أنه تبين فى علم الموسيقى أن الأصوات تتناسب فيكون : صوت ؛ نصف صوت ؛ وربع آخر ؛ وخُمْس آخر ؛ وجزءا من أحد عشر من آخر . واختلاف هذه النسب عند تأديتها إلى السمع يخرجها من البساطة إلى التركيب . وليس كل تركيب منها ملذوذاً عند السماع ، بل للملذوذ تراكيب خاصة هى التى حصرها أهل علم الموسيقى ، وتكلموا عليها كما هو مذكور فى موضعه . وقد يساوق ذلك التلحين فى النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات إما بالقرع أو بالنفخ فى الآلات تتخذ لذلك ، فترى لها لذة عند السماع . فمنها لهذا العهد أصناف . منها ما يسمونه الشبّابة ، وهى قصبة جوفاء بأبخاش فى جوانبها معدودة ينفخ فيها فتُصَوِّت ويخرج الصوت من جوفها على سدادة من تلك الأبخاش ، و يقطع الصوت بوضع الأصابع من اليدين جميعاً على تلك الأبخاش وضعاً متعارفاً ، حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه ، وتتصل كذلك متناسبة فيلتذ السمع بإدراكها للتناسب الذى ذكرناه . ومن جنس هذه الآلة المزمار الذى يسمى الزلامى وهو شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب ، جوفاء من غير

تدوير لأجل ائتلافها من قطعتين منفردتين كذلك بأبخاش معدودة ، ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل فينفذ النفخ بواسطتها إليها ، وتُصَوَّت بنغمة حادة يجرى فيها من تقطيع الأصوات من تلك الأبخاش بالأصابع مثل ما يجرى فى الشَّبَّابة .

ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد البوق . وهو بوقٌ من نحاس أجوف فى مقدار الذراع يتسع إلى أن يكون انفراج مخرجه فى مقدار دون الكف فى شكل بَرْى القلم ، و ينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدى الريح من الفم إليه ، فيخرج الصوت تخييناً دوياً ، وفيه أبخاش أيضاً معدودة ، وتُقطع نغمة منها كذلك بالأصابع على التناسب ، فيكون ملذوذاً . ومنها آلات الأوتار وهى جوفاء كلها ، إما على شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب ، أو على شكل مربع كالقانون توضع الأوتار على بسائطها مشدودة فى رأسها إلى دُسُر[١٢٤٧] جائلة ليتأتى شد الأوتار ورخوها عند الحاجة إليه بإدارتها . ثم تقرع الأوتار إما بعود آخر أو بوتر مشدود بين طرفى قوس يمر عليها بعد أن يطلى بالشمع والكندر ، و يقطع الصوت فيه بتخفيف اليد فى إمراره أو نقله من وتر إلى وتر . واليد اليسرى مع ذلك فى جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر ، فتحدث الأصوات متناسبة ملذوذة وقد يكون القرع فى الطسوت بالقضبان أو فى الأعواد بعضها ببعض على توقيع متناسب يحدث عنه التذاذ بالمسموع .

ولنبين لك السبب فى اللذة الناشئة عن الغناء . وذلك أن اللذة كما تقرر فى موضعه هى إدراك الملائم ، والمحسوس إنما تدرك منه كَيْفِيَّةٌ ، فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة ، و إذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة .

فالملائم من الطعوم ما ناسبت كيفيته حاسة الذوق فى مزاجها ، وكذا الملائم من الملموسات ، وفى الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبى البخارى

لأنه المدرك ، وإليه تؤديه الحاسة . ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملاءمة للروح لغلبة الحرارة فيها التى هى مزاج الروح القلبى . وأما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الأوضاع فى أشكالها وكيفاتها ، فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها . فإذا كان المرئى متناسباً فى أشكاله وتخاطيطه التى له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع ، وذلك هو معنى الجمال والحسن فى كل مدرك ، كان ذلك حينئذ مناسباً للنفس المدركة ، فتلتذ بإدراك ملائمها . ولهذا تجد العاشقين المستهترين فى المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقهم بامتزاج أرواحهم بروح المحبوب . وفى هذا سر تفهمه إن كنت من أهله ، وهو اتحاد المبدأ وأن كل ما سواك إذا نظرته وتأملته رأيت بينك وبينه اتحاداً فى البداية ، يشهد لك به اتحادكما فى الكون . ومعناه من وجه آخر أن الوجود يشرك بين الموجودات كما تقوله الحكماء فتود أن تمتزج بما شاهدت فيه الكمال لتتحد به ، بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم إلى الحقيقة التى هى اتحاد المبدأ والكون . ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يدرك الكمال فى تناسب موضوعها هو شكله الإنسانى فكان إدراكه للجمال والحسن فى تخاطيطه وأصواته من المدارك التى هى أقرب إلى فطرته ، فيلهج كل إنسان بالحسن من المرئى أو المسموع بمقتضى الفطرة .

والحسن فى المسموع أن تكون الأصوات متناسبة لا متنافرة . وذلك أن الأصوات لها كيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك ، والتناسب فيها هو الذى يوجب لها الحسن . فأولا أن لا يخرج من الصوت إلى ضده (١٣٠٤ب) دفعة بل بتدريج ، ثم يرجع كذلك ، وهكذا الى

(١٣٠٤ ب) فى جميع النسخ « إلى مده » ، وهو تحريف .

المثل (١٣٠٤ج) ، بل لا بد من توسط المُغاير بين الصوتين . وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج ، فإنه من بابه . وثانياً تناسبها فى الأجزاء كما مر أول الباب ، فيخرج من الصوت إلى نصفه أو ثلثه أو جزء من كذا منه ، على حسب ما يكون التنقل مناسباً على ما حصره أهل الصناعة . فإذا كانت الأصوات على تناسب فى الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة . ومن هذا التناسب ما يكون بسيطا ويكون الكثير من الناس مطبوعا عليه لا يحتاجون فيه إلى تعليم ولا صناعة ، كما نجد المطبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك . وتسمى العامة هذه القابلية بالمضمار .

وكثير من القراء بهذه المثابة يقرءون القرآن فيجيدون فى تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم . ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب . وليس كل الناس يستوى فى معرفته ولا كل الطباع توافق صاحبها فى العمل به إذا علم . وهذا هو التلحين الذى يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم . وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين ، وأجازها الشافعى رضى الله تعالى عنه (١٣٠٤ء) . وليس المراد تلحين الموسيقى

(١٣٠٤ حـ) أى وهكذا لا يخرج الصوت إلى مماثله دفعة بل لا بد من توسط المغاير بين الصوتين المتماثلين .

(١٣٠٤ د) يعتمد الذين يجيزون الغناء على حديث لأبى هريرة رواه البخارى بنصين وسندين : (أحدهما) حدثنا يحيى بن بكير . . . عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم يأذن الله لشىء ما أذن للنبى صلى الله عليه وسلم يتغنى بالقرآن » ؛ (والآخر) حدثنا على بن عبد الله . . . عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما أذن الله لشىء ما أذن للنبى صلى الله عليه وسلم أن يتغنى بالقرآن » .

وأما الذين لا يجيزون التغنى ، فيقولون إن كلمة « التغنى » فى هذا الحديث معناها الجهر بالقرآن أو الاستغناء به عن غيره . والبخارى نفسه قد اتبع النصين السابقين بما يفيد هذا

الصناعى فإنه لا ينبغى أن يُختَلَف فى حظره ، إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه . لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعيين أداء الحروف من حيث اتباع الحركات فى موضعها ومقدار المد عند من يطلقه أو يقصره وأمثال ذلك؛ والتلحين أيضاً يتعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من أجل التناسب الذى قلناه فى حقيقة التلحين ؛ واعتبار أحدهما قد يخل بالآخر إذا تعارضا. وتقديم الرواية متعين من تغيير الرواية المنقولة فى القرآن . (١٣٠٥) فلا يمكن اجتماع التلحين والأداء المعتبر فى القرآن بوجه . وإنما مرادهم التلحين البسيط الذى يهتدى إليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه . فيردد أصواته ترديداً على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره . ولا ينبغى ذلك بوجه كما قاله مالك . هذا هو محل الخلاف . والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب إليه الإمام رحمه الله تعالى ؛ لأن القرآن محل خشوع بذكر الموت وما بعده ، وليس مقام التذاذ بإدراك الحسن من الأصوات . وهكذا كانت قراءة الصحابة رضى الله عنهم كما فى أخبارهم . وأما قوله صلى الله عليه وسلم «لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود» (١٣٠٦) فليس المراد به الترديد والتلحين ، إنما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والإبانة فى مخارج الحروف والنطق بها .

= التأويل ، فقال بعد أن أورد النص الأول : « وقال صاحب له يريد يجهر به » ؛ وقال بعد أن أورد النص الثانى : « قال سفيان تفسيره يُستغنى به » . وعنون الباب بما يفيد أنه يؤيد تفسير التغنى بالاستغناء بالقرآن عن غيره ، فقال : « باب من لم يتغن بالقرآن » ، وقوله تعالى : أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب » (آية ٥١ من سورة العنكبوت ، وهى سوره ٢٩). انظر الجزء الثالث من صحيح البخارى صفحة ١٤٣ (المطبعة البهية سنة ١٣٤٣).

(١٣٠٥) العبارة ركيكة ، والمقصود أنه حينما يقتضى التلحين الغنائى تغيير الرواية المنقولة بشأن تلاوة القرآن وأداء حروفه فإنه يتعين تقديم الرواية على مقتضيات التلحين .

(١٣٠٦) يشير بذلك إلى حديث البخارى فى باب حسن الصوت بالقراءة وهو : « حدثنا محمد بن خلف أبو بكر ... عن أبى موسى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير داود » . انظر الجزء الثالث من صحيح البخارى ص ١٤٥ (المطبعة البهية سنة ١٣٤٣) .

وإذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث فى العمران إذا توفر [٦٠] وتجاوز حد الضرورى إلى الحاجى [٤٣٩ب] ثم إلى الكمالى وتفننوا فتحدث هذه الصناعة . لأنه لا يستدعيها إلا من من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره ؛ فلا يطلبها إلا الفارغون عن سائر أحوالهم تفنناً فى مذاهب الملذوذات .

وكان فى سلطان العجم قبل الملة منها بحر زاخر فى أمصارهم ومدنهم . وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به ؛ حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام بأهل هذه الصناعة ، ولهم مكان فى دولتهم ، وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها . وهذا شأن العجم لهذا العهد فى كل أفق من آفاقهم ، ومملكة من ممالكهم .

وأما العرب فكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها فى عدة حروفها المتحركة والساكنة ، ويفصلون الكلام فى تلك الأجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلا بالإفادة لا ينعطف على الآخر ، ويسمونه البيت ، بتلاؤم الطبع بالتجزئة أولا ، ثم بتناسب الأجزاء فى المقاطع والمبادىء ، ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها . فلهجوا به فامتاز من بين كلامهم بحظ من الشرف ليس لغيره لأجل اختصاصه بهذا التناسب . وجعلوه ديواناً لأخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكاً لقرائحهم فى إصابة المعانى وإجادة الأساليب . واستمروا على ذلك . وهذا التناسب الذى من أجل الأجزاء والمتحرك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الأصوات كما هو معروف فى كتب الموسيقى . إلا أنهم لم يشعروا بما سواه ، لأنهم حينئذ لم يفتحلوا علماً ولا عرفوا صناعة ، وكانت البدواة أغلب نحلهم . ثم تغنى الحُداة [١٢٣٧] منهم فى حُداء [١٢٣٧] إبلهم ، والفتيان فى فضاء خلواتهم فرجّعوا الأصوات وترنموا ، وكانوا يسمون الترنم إذا كان بالشعر غنـــاء ، وإذا كان بالتهليل أو نوع القراءة تغبيراً بالغين المعجمة والباء الموحدة . وعللها أبو اسحق الزّجّاج بأنها تذكر بالغابر وهو الباقى ، أى بأحوال الآخرة . وربما ناسبوا فى غنائهم بين النغمات مناسبة

بسيطه كما ذكره ابن رشيق آخر كتاب العمدة وغيره ، وكانوا يسمونه السِّناد . وكان أكثر ما يكون منهم فى الخفيف (١٣٠٧) الذى يرقص عليه ويمشى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم . وكانوا يسمون هذا الهَزَجَ . وهذا البسيط كله من التلاحين هو من أوائلها . ولا يبعد أن تتفطن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع . ولم يزل هذا شأن العرب فى بداوتهم وجاهليتهم .

فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة ٤٩٩ ب على الحال التى عرفت لهم مع غضارة ٤٠٤ ب الدين وشدته فى ترك أحوال الفراغ ، وما ليس بنافع فى دين ولا معاش ، فهجروا ذلك شيئاً ما ، ولم يكن الملذوذ عندهم إلا ترجيع القراءة والترنم بالشعر الذى هو ديدنهم ومذهبهم . فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرَّفْه ٥٠٧ بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ . وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالى للعرب ، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والزمامير ، وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم . وظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائب جائر مولى عبيد الله بن جعفر ، فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر . ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره . وما زالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بنى العباس عند إبراهيم بن المهدى وإبراهيم الموصلى وابنه اسحق وابنه حماد . وكان من ذلك فى دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث بعده به وبمجالسه لهذا العهد . وأمعنوا فى اللهو واللعب واتخذت آلات الرقص فى الملبس والقضبان والأشعار التى يترنم بها عليه ، وجعل صنفاً وحده . واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج ، وهى تماثيل

(١٣٠٧) هو بحر من بحور الشعر وأجزاؤه فاعلاتن مُسْتَفْعِلُنْ فاعلاتن مرتين

خيل مسرجة من الخشب ، معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ، ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويثاقفون[١٣٠٨] ، وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو . وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها إلى غيرها . وكان للموصليين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه إلى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس ، فبالغ فى تكرمته ، وركب للقائه وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات ، وأحله من دولته وندمائه بمكان ، فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف ، وطما منها باشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العُدْوَة بإفريقية والمغرب ، وانقسم على أمصارها ، وبها الآن منها صُبابةٌ على تراجع عمرانها وتناقص دولها .

وهذه الصناعة آخر مايحصل فى العمران من الصنائع لأنها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف ، إلا وظيفة الفراغ والفرح ، وهى أيضاً أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه . والله أعلم .

٣٣ — فصل فى أن الصنائع تكسب صاحبها عقلا

وخصوصا الكتابة والحساب

قد ذكرنا فى الكتاب[١٣٠٩] . أن النفس الناطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة ، وأن خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات أولا ، ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكا بالفعل وعقلا محضا ، فتكون ذاتاً روحانية وتستكمل حينئذ وجودها . فوجب لذلك

(١٣٠٨) ثَقِفْتُ الرجل فى الحرب من باب تعب أدركته ، وثَقِفْتُه ظفرت به ، وتثاقفا حاول كل منهما أن يدرك الآخر ويظفر به .

(١٣٠٩) أشار إلى ذلك فى الفصل السادس عشر من هذا الباب (انظر ص ٩٢٣ وتوابعها) . وسيعرض لذلك فى عدة فصول من الباب السادس .

أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلا فريدا . والصنائع أبداً يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمى مستفاد من تلك الملكة . فلهذا كانت الحنكة فى التجربة تفيد عقلا ، والملكات الصناعية تفيد عقلا ، والحضارة الكاملة تفيد عقلا ، لأنها مجتمعة من صنائع فى شأن تدبير المنزل ، ومعاشرة أبناء الجنس ، وتحصيل الآداب فى مخالطتهم ، ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائطها ، وهذه كلها قوانين تنتظم علوماً فيحصل منها زيادة عقل .

والكتابة من بين الصنائع أكثر إفادة لذلك ، لأنها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصنائع . وبيانه أن فى الكتابة انتقالا من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية فى الخيال ، ومن الكلمات اللفظية فى الخيال إلى المعانى التى فى النفس ، وذلك دائماً . فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات وهو معنى النظر العقلى الذى يكسب العلوم المجهولة ، فيكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ، ويحصل به قوة فطنة وكَيْسٍ فى الأمور لما تعود من ذلك الانتقال . ولذلك قال كسرى فى كُتَّابه لما رآهم بتلك الفطنة والكيس ، فقال «ديوانة» أى شياطين وجنون . قالوا وذلك أصل اشتقاق الديوان لأهل الكتابة . ويلحق بذلك الحساب فان فى صناعة الحساب نوع تصرف فى العدد بالضم والتفريق ، يحتاج فيه إلى استدلال كثير ، فيبقى متعوداً الاستدلال والنظر . وهو معنى العقل . والله أعلم .